مكتبتا الاسكندرية وبرجاموم

أشهر مكتبات الحقبة الهيلينستية



الدكتور: سعد بن عبد الله الضبيعان

أستاذ المكتبات المشارك - قسم علوم المكتبات والمعلومات

كلية الآداب - جامعة الملك سعود

دار المريخ للنشر

مكتبتا الاسكندرية وبرجاموم

أشهر مكتبات الحقبة الهيلينستية

مكتبتا الاسكندرية وبرجاموم

أشهر مكتبات الحقبة الهلينستية

تأليف

الدكتور: سعد بن عبد الله الضبيعان

أستاذ المكتبات المشارك ـ قسم علوم المكتبات والمعلومات

كلية الآداب ـ جامعة الملك سعـود



ص. ب: ١٠٧٢٠ ـ الـرياض: ١١٤٤٣ ـ فاكس ٤٦٥٧٩٣٩

المملكـة العربية السعودية ـ تلفون ٤٦٥٨٥٢٣ ـ ٤٦٤٧٥٣١

ح دار المريخ للنشر والتوزيع ، ١٤٢٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الضبيعان ، سعد عبد الله

مكتبتا الإسكندرية وبرجاموم : أشهر مكتبات الحقبة الهلينستية .-

الرياض .

٩٥ ص ، ١٧×٢٤ سم

ردمك : ٨-٤٧٦-٢٤-٩٩٦٠

١- مكتبة الإسكندرية - تاريخ ٢- مكتبة برجاموم - تاريخ

أ- العنوان

ديوي ٠٢١،٠٠٩ ٢٠/٣٥٣٥

رقم الإيداع : ٢٠/٣٥٣٥

ردمك : ٨-٤٧٦-٢٤-٩٩٦٠



إهـــداء

أهـدى هـذا العـمـل إلـى جمـيـع
أصـدقـائـي وأحـبـائي، وهم كثـر .
متمنياً للجميع دوام التوفيق والنجاح .

المحتويـــات

مقدمة

مكتبتان شهيرتان تنتميان كلاهما إلى حقبة تاريخية واحدة وإلى حضارة واحدة هي الحضارة الهيلينستية. ولا تكاد تذكر أحدهما إلا وتذكر معها الأخرى، ذلكم مكتبة الإسكندرية القديمة التي أسسها ملوك البطالمة في الإسكندرية، ووصيفتها مكتبة برجاموم التي أنشأها ملوك الأتاليين في مملكة برجاموم الواقعة في أقصى الشمال الغربي من آسيا الصغرى. والمكتبتان من صروح الحضارة الهيلينستية، وهي حضارة متميزة جمعت بين حضارة اليونان والحضارات الشرقية القديمة، وكانت نتيجة هذا التزواج ظهور حضارة جديدة عرفت بالحضارة -Hel linistic Civilizatin وقد امتدت هذه الحضارة من بداية فتوحات الإسكندر المقدوني واستمرت ما يقرب من ٣٠٠ عام. وأصبح لمدينتي الإسكندرية وبرجاموم موقع متميز في تلك الحضارة وخاصة مدينة الإسكندرية التي احتلت مكان الصدارة بين مراكز الحضارة الهيلينستية.

ولاهتمام الباحث بهاتين المكتبتين بحكم تدريسه لمادة تاريخ الكتب والمكتبات ـ لعدة سنوات ـ لطلبة قسم علوم المكتبات والمعلومات/ كلية الآداب/ جامعة الملك سعود. ولما لاحظه من نقص حاد في الأدب المكتوب حول هذا الموضوع لاسيما مكتبة برجاموم، فقد قام الباحث بإعداد بحثين عن المكتبتين الشهيرتين نشرا في دوريتين علميتين محكمتين، حيث نشر البحث المتعلق بمكتبة الإسكندرية القديمة في مجلة العصور التي تصدرها دار المريخ بالرياض، وهي مجلة علمية محكمة معروفة تصدر مرتين في العام وتعنى بنشر البحوث التاريخية والآثارية والحضارية. وقد ظهر البحث في المجلد الرابع، الجزء الأول لسنة ١٤٠٩هـ. ونشر البحث الخاص بمكتبة برجاموم في مجلة علمية أكاديمية محكمة أخرى لا تقل أهمية وشهرة عن سابقتها، وهي مجلة جامعة الملك سعود (الآداب) التي تصدر مرتين في العام، وهي المجلة الرسمية لكلية الآداب في الجامعة . وظهر هذا البحث في المجلد العاشر/ عدد ٢ لسنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

ونـظراً للجهـود الكبيرة التي بذلت في إعداد البحثين، ولارتباط موضوعيهما، ومن أجل التسهيل على القارىء، وبناءً على اقتراح بعض الزملاء، وبعض الطلاب، فقد رأى المؤلف للأسبـاب الآنفـة الذكر وضع البحثين بين دفتي كتاب بعد إجراء بعض التنقيح، والزيادة والتعديل ليتناسب مع الوضع الجديد للبحث. وحقيقة لم يكن الباحث راض تمام الرضا عن التعديلات التي أجريت على البحث في شكله الجديد، كما كان يأمل أن يضيف إليهما مادة أو إضافة جديدة، هي بيت الحكمة في بغداد الذي أسسه أبو جعفر المنصور وتطورت واشتهرت في عهد الخليفة المأمون. هذه المؤسسة تشبه إلى حد كبير مكتبتي الاسكندرية وبرجاموم في الأهداف والمقاصد. وقد انتظر الباحث سنوات عدة عله يجد وقتاً للقيام بذلك، وخوفاً من عدم مجيء هذا الوقت، فقد قرر المؤلف نشر هذا البحث بوضعه الحالي راجياً أن يتمكن مستقبلاً من القيام بالتعديلات والإضافات التي تزيد من ثراء هذا البحث.

واتباعاً لأعراف حقوق النشر، فقد تم أخذ موافقة المجلتين اللتين ظهر البحثان فيهما. وبهذه المناسبة يشكر المؤلف الأستاذ/ عبد الله بن علي الماجد مدير عام دار المريخ للنشر، والمدير المسؤول لمجلة العصور، كما يشكر رئيس المجلس العلمي، ورئيس هيئة المحررين بمجلـة جامعـة الملك سعـود (الآداب) على تفضلهم بالمـوافقـة على إعـادة نشـر البحثـين المذكورين فـي كتـاب .

إن البـاحث ـ الـذي قدم جهد المقل ـ في إعداد البحث ليرجو أن يكون قد قدم شيئاً فيه المتعــة والفـائـدة للقـراء بشكـل عام، وللمتخصصـين في مجال المكتبـات والمعلومـات على نحـو خـاص .

والله ولي التوفيق وهو حسبنا، ، ،

المؤلـــــف

الفصل الأول

مكتبة الاسكندرية القديمة

الفصل الأول
مكتبة الاسكندرية القديمة

١ ـ ١. مدخل

يطلق مصطلح مكتبة الإسكندرية تاريخياً على مكتبتي الإسكندرية الرئيسة أو الموسيوم في حي البروكيوم، والفرعية أو مكتبة السيرابيوم في الحي الوطني (راقودة). ورغم كون هذه المكتبة ضاربة في أعماق التاريخ، إلا أنها ليست أقدم المكتبات لكنها على أية حال أهم مكتبة في العالم القديم. ولقد حظيت مكتبة الإسكندرية باهتمام الكثير من المؤرخين والباحثين من قدماء ومحدثين. وبقدر هذا الاهتمام كان مقدار الاختلافات بين من تناول موضوع هذه المكتبة الشهيرة. فلم تتفق الآراء بادىء ذي بدء حول مُؤسس المكتبة الرئيسة أو الفرعية. كما أن حجم مجموعتي المكتبتين هو أيضاً موضع خلاف. على أن أهم الخلافات والجدل المثار بين المؤرخين والباحثين نشأ حول نهاية المكتبة، وخاصة ما أشارت إليه بعض الروايات التاريخية من أن يوليوس قيصر تسبب في إحراقها في عام ٤٧ق.م. كما أن موضوع اتهام المسلمين ممثلين في شخص عمرو بن العاص ـ والي مصر ـ بأنه الذي قام بإحراق المكتبة بإيعاز من الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ،هو أمر لا يقل إثارة عن سابقه.

وسيتناول هذا الفصل هذا الموضوع الحيوي بشيء من التفصيل، كما سيقف عند الآراء المختلفة مرجحاً قدر المستطاع لأحد تلك الآراء استناداً على التحليل والدراسة للكثير من المصادر المهمة التي رجع إليها الباحث، لاسيما ما كتب منها باللغة الإنجليزية.

ويمهد الباحث لهذا الموضوع بإعطاء خلفية تاريخية عن مدينة الإسكندرية؛ أهميتها، وسكانها، وأكاديميتها، وعلماؤها ومساهماتهم في المنجزات الحضارية. ثم يتناول المكتبة بجزئيها الرئيس والفرعي وأمنائها، ومجموعاتها من الكتب وكيفية تنميتها، وعلاقاتها مع المكتبات الأخرى خارج مصر، ومصيرها، والمسلمين وحريق المكتبة. وأخيراً يسلط الأضواء على موضوع اتهام المسلمين بإحراق تلك المكتبة، ويعالج هذه القضية بأسلوب علمي، وذلك في محاولة لإظهار مدى صحة هذه الرواية المثيرة للجدل من زيفها.

٢ ـ ١ . ـ إنشاء مدينة الإسكندرية

تمكن الإسكندر الأكبر Alexander the Great (٣٥٦-٣٢٣ق.م.) من تأسيس امبراطورية عالمية امتدت ـ فيما امتدت ـ من مصر غرباً إلى الهند شرقاً.[١] لكن هذه الامبراطورية الواسعة الأرجاء أصبحت مسرحاً للصراع بين قادة الإسكندر نتج عنه انقسامها بعد وفاة مؤسسها إلى عدة ممالك أو دول أهمها دولة البطالمة في مصر وقورينائية (برقة)، ومملكة الأنتيجونيين في مقدونيا، ودولة السلوقيين Seleucids التي شملت معظم ما كانت تضمه الإمبراطورية الفارسية في آسيا، إلى جانب أرض الجزيرة في العراق وسوريا وبابل.[٢] وكان الإسكندر الأكبر قد فتح مصر في عام ٣٣٢ق.م. من ناحية الشرق بعد الاستيلاء على بلاد الشام. وبعد أن استقر به المقام في (منف) ـ عاصمة مصر في ذلك الوقت ـ اختار مكاناً مناسباً لمدينة تحمل اسمه هي مدينة الإسكندرية. وقد أثبت الزمن أن اختياره لذلك الموقع كان موفقاً. ولعل الإسكندر قد توخى بعض الأهداف من إنشاء هذه المدينة؛ أولها، إنشاء مدينة ذات طابع إغريقي تنشر ثقافة اليونان وحضارتها في مصر وفي ربوع الشرق. وثانيها، أن تَخْلُف هذه المدينة مدينة صور في عالم التجارة، وثالثها، لتكون قاعدة بحرية متقدمة تدعم نفوذه العسكري وسيطرته السياسية على بحر إيجة وشرقي البحر الأبيض المتوسط.[٣]

وقد استغرق بناء الإسكندرية مدة تقارب الثمانين عاماً، ولم يكن هذا البناء قد تقدم كثيراً عند موت الإسكندر في سنة ٣٢٣ق.م، ولكنه اكتمل في عهد بطلميوس الثاني (فيلادلفوس) Ptolemy II (Philadelphos) ثاني ملوك أسرة البطالمة التي آل إليها حكم مصر بعد وفاة الإسكندر. وكانت الإسكندرية تحتل موقعاً استراتيجياً مهما لقربها من بلاد اليونان وآسيا الصغرى مما أهلها لاجتذاب تجارة البحر الأدرياتي وبحر إيجة، فضلاً عن الحوض الشرقي للبحر المتوسط. وفي جنوب المدينة تشكل بحيرة مريوط المتصلة بالنيل حلقة الاتصال المائي بين الإسكندرية وسائر أنحاء مصر مما جعل السفن تأتي إليها مـن جميع أرجاء القطر المصري حاملة منتجات البلاد وتستبدل حمولتها بأخرى ممـا يرد عن طريق البحر. [٤] وقد أوكل أمر تخطيط المدينة إلى المهندس الروديسي دينوكراتس Dinocrates الذي صممها وفقاً لطريقة تخطيط المدن التي نشرها هيبوداموس Hip-podamos فجاءت كلوحة الشطرنج، يحدها البحر المتوسط من الشمال وبحيرة مريوط من الجنوب. وكانت شوارعها عريضة تتقاطع مع بعضها عمودياً (وفقاً لقواعد التخطيط الحديثة التي تقوم على تغليب الخط المستقيم) وتوازي بشكل عام الشارعين الرئسين للمدينة والذي يمتد أشهرهما الكانوبي Canopus من شرق المدينة إلى غربها، أما الثاني ويعـرف بالسـوما Soma ـ وهو اسم يطلق على ضريح الإسكندر Sema ـ فيتجه من الشمال إلى الجنوب ويتقاطع مع شارع كانوب حيث يتألف ميدان كبير يعتبر مركز الثقل في المدينة. [٥]وكانت المدينة محصنة ولها أربع بوابات، البوابة الغربية تصل المدينة بمدينة المـوتى (Necropolis) ، والجنوبية أو بوابة الشمس تصلها ببحيرة مريوط، أما البوابة الشمالية أو بوابة القمر فتصل المدينة بالميناء. [٦] وتتألف المدينة من خمسة أحياء، سميت بالأحرف الهجائية الأولى في اللغة اليونانية (ألفا ـ بيتا ـ جاما ـ دلتا ـ أبسيلون)، ومن تلك الأحياء الحي الملكي، والوطني، والحي الذي اختار اليهود الإقامة فيه هو حي دلتا. ولاشك أن أهم أحياء المدينة وأجملها هو الحي الملكي أو (البروكيوم) Brucheium أو Brocheion الذي يطل على ساحل البحر المتوسط، ويشتمل على معالم المدينة البارزة مثـل القصـور الملكية، والأكـاديمية ـ التي تشكـل مكتبة الإسكندرية الشهيرة أحد أجزائها ـ ومدافن الإسكندر والبطالمة (سيما) Sema ، والمحكمة (Dekasterion). وفي

مواجهة الحي الملكي وعلى صخرة مرتفعة شرقي جزيرة فاروس شيدت منارة الإسكندرية المشهورة من قبل المهندس سوستراتوس (Sostratos) تلك التي بُدىء في إنشائها في عهد بطلميوس الأول Ptolemy I (Soter) واكتملت في عهد ابنه بطليموس الثاني في حوالي عام ٢٨٠/٢٧٩ق.م.[٧] ويتألف سكان المدينة من عدة طبقات من أهمها:

١ ــ طبقة المواطنين الكاملين (Astoi) ؛ أو الإسكندريين (Alexandreis) ولفظ اسكندري يطابق كلمة مواطن، بمعنى آخر، يمكن استخدام إحدى هاتين الكلمتين تبادلياً. وتتألف هذه الطبقة من أقدم الأسر الإغريقية وأعظمها شأناً، وهؤلاء يتمتعون بحقوق المواطنة الكاملة ولهم بعض الامتيازات الدينية ومنهم الكنهة وبعض الموظفين، كما يتمتعون بالإعفاء من الضرائب وأعمال السخرة.[٨]

٢ ــ أنصاف المواطنين؛ ويتمتعون بقدر محدد من حقوق المواطنة، وهم ثلاث فئات؛ أولها، الذين لم يسجلوا في أحياء بعينها وورد ذكر تلك الأحياء مقترناً بأسماهم. والثانية، فئة الذين لم يسجلوا بعد في أحياء ولم تحدد أحياؤهم. والثالثة، اسكندريو السلالة الذين لم يسجلوا بعد في أحياء بذاتها رغم ورود ذكر الأحياء مقترنة بأسمائهم.[٩]

٣ ــ المقدونيون؛ طبقة ممتازة أخرى تتمتع بحظوة كبيرة في الجيش والبلاط، ويسكنون في حي البروكيوم الملكي.

٤ ــ طبقة الفرس؛ وهذه تعود في أصولها إلى بلاد فارس، ولها بعض الامتيازات التي لا ترقى إلى مصاف الطبقات الثلاث الأولى.

٥ ــ طبقة الإغريق؛ تتشكل من الفقراء الذين وفدوا من أنحاء العالم الإغريقي، إلا أنهم لم ينتموا لفئة المواطنين ولم يتمتعوا بامتيازاتهم.[١٠]

٦ ــ اليهود؛ الذين يقيمون في حي (دلتا) ويؤلفون طبقة كبيرة ولهم دستورهم الخاص وبعض الحقوق المدنية والامتيازات التي ربما تفوق امتيازات الفرس، إلا أنهم لا

يتمتعون بحقوق المواطنة، كما كانوا مكروهين مـن الإغريق والمصـريين علـى حـد سـواء.[١١]

٧ ـ المصريون؛ وهم طبقـة الصنـاع والعـمال وبعض الجنـود، ويقطنون في الحي الشعبي أو حي راقودة وجزيرة فاروس. ولم تكن ثقافة هذه الطبقة إغريقية، لذا اعتبروا عنصراً أجنبياً. ورغم ذلك كان لبعضهم مكانة ممتازة مثل كهنة السرابيوم أو الفئة التي تطبعت من هؤلاء بطباع الإغريق وعمل بعض أفرادها في بلاطات أواخر البطالـة.[١٢]

وبـالإضـافة إلى الطبقات السبع المشار إليها وجدت جماعات متعددة أخرى من الأجانب والعبيد.

٣ ـ ١. الأكاديمية أو المتحف (الموسيوم أو الموسيون) Museum or Mouseion

تباينت آراء المؤرخين فيما يتعلق بمؤسس الأكاديمية أو الموسيوم، وهل هو بطلميوس (سـوتـر) أو ابنه بطلميوس الثاني (فيلادلفوس). وقد ذكر أثينوس Athenaeus ـ من كُتّاب القرن الثاني ـ أن بطلميوس الثاني هو الذي أسس الأكاديمية.[١٣] ولا تجزم بعض المصـادر على وجه الدقة بتحديد مؤسس الأكاديمية ومنها على سبيل المثال، موسوعة المكتبات وعلوم المعلومات التي تشير إلى أن التأسيس تم في فترتي بطلميوس الأول وابنه بطلميوس الثاني.[١٤]ولكن هناك شبه إجماع بين المصادر التي تم الرجوع إليها ـ وهي كثيرة ـ على أن بطلميوس الأول هو الذي شرع في إنشاء تلك الأكاديمية.[١٥] وتفاصيل ذلك أنه بعد أن تمكن بطلميوس الأول من إقامة دولة البطالمة في مصر حرص على أن يجعل هذه الدولة من أعظم الدول، فبدأ في توطيد أركانها ليس في النواحي السياسية والتجارية فحسب، بل وفي الرقي الثقافي والعلمي على حد سواء. وقد تميز بطلميوس الأول مع نشأته العسكرية الفذة بأفق واسع وحب عظيم للثقافة اليونانية التي أصبحت آنذاك ثقافة عالمية، كما كان على قدر كبير من الذكاء والثقافة حتى إنه ألف كتاباً عن الإسكندر الأكبر نفسه.[١٦] وتحقيقاً لمطامح بطلميوس الأول في أن يبرز مملكته لتبز بقية

الممالك الهلينستية، فقد عقد العزم على أن يجعل من الإسكندرية مكاناً يشع العلم والمعرفة تماماً كما يشع النور من منارتها الشهيرة.

ومن أجل مساعدته في تحقيق هذه الغاية فقد وجد مؤسس دولة البطالمة ضالته في شخص ديمتريوس الفاليري Demeterius of Phalerum وهو أحد الفلاسفة المشائين الذين تتلمذوا في مدرسة أرسطو (اللوقيوم) Lyceum ، إضافة إلى أنه كان سياسياً تقلد الأمور في أثينا بين سنتي ٣١٧-٣٠٧ق.م. اضطر بعدها إلى ترك أثينا ولجأ إلى مصر، واستقر به المقام في بلاط بطلميوس الأول في عام ٢٩٧ق.م. حيث وجد حظوة كبيرة هناك. [١٧]

ساعد ديمتريوس الفاليري بطلميوس (سوتر) في التخطيط للأكاديمية أو الموسيوم (Museum) وإنشائها، بل إن بعض المؤرخين يذهبون إلى حد القول بأن ديمتريوس كان صاحب فكرة إنشاء الأكاديمية، وأنه هو الذي أقنع بطلميوس الأول بتنفيذها ليجعل من الإسكندرية مدينة عظيمة تنافس أثينا في العلوم والآداب والفلسفة اليونانية[١٨]. والموسيوم في أصل نشأته معبد للتاسوع الإلهي من ربات الفنون أو الحوريات (Muses) [١٩]. وهو في واقع الأمر عبارة عن مركز أبحاث وجد ليعنى بالبحوث أكثر من التركيز على التعليم. أما من ناحية طرازه المعماري فقد أقيم على النمط الأثيني في حي البروكيوم أجمل أحياء الإسكندرية وأرقاها.[٢٠]وكان بناءً رائعاً يشتمل على قاعات للمحاضرات، وأروقة فسيحة معمدة، وغرف للدراسة، وقاعات مشتركة يتناول العلماء وجباتهم فيها بشكل جماعي.[٢١] ومن ضمن المرافق الأخرى المرتبطة بالأهداف البحثية للأكاديمية وجد مرصد فلكي، وحديقة حيوان لإجراء بعض التجارب العلمية من قبل بعض العلماء العاملين في الأكاديمية. ويتوسط المكان حمام سباحة، كما تحفه الأشجار والحدائق الغناء، مما أضفى على المكان الكثير من البهجة والسرور. [٢٢]

وضمن مجمع الموسيون المهم وجدت المكتبة التي أصبحت سمعتها ـ في كثير من الأحيان ـ تفوق سمعة الموسيوم نفسه. ولقد وصف الجغرافي والمؤرخ اليوناني الشهير استرابون[١٩] (Strabo) الموسيون ـ وكان قد أقام به خمس سنوات ـ بقوله: «الموسيوم جزء من القصور الملكية، ويشتمل على منتزه ورواق به مقاعد، وبيت كبير به قاعة لاجتماع العلماء أعضاء الموسيوم»[٢٣] وقد استطاع ملوك البطالمة وخاصة بطلميوس الأول وابنه بطلميوس الثاني أن يحشدوا عدداً كبيراً من العلماء من ذوي الخلفيات العلمية المختلفة للعمل في الأكاديمية حيث كانت الدولة تجري لهم المرتبات بالإضافة إلى المعيشة والسكنى، وذلك لكي ينصرفوا تماما إلى البحث والدراسة؛[٢٤] وقام بالإشراف على هذه الأكاديمية أحد الكهنة الذي يتم تعيينه من قبل حكام البطالمة. وينضوي تحت هذا المنصب العديد من الهيئات أو التخصصات لكل تخصص هيئة من العلماء، ولكل هيئة من هذه الهيئات رئيس يشرف على أعمالها.[٢٥] ويعود الفضل لأكاديمية الإسكندرية هذه ليس فقط في الحفاظ على تراث وعلوم اليونان بل وترقيتها وبثها في الشرق. وهناك الكثير من العلماء والأعلام الذين ارتبطت أسماؤهم بالإسكندرية وأكاديميتها. ومن هؤلاء على سبيل المثال العالم والمهندس الشهير اقليدس (Euclides) الذي ألف كتابه الأصول (في علم الهندسة). كما كان من بينهم المهندس المعروف أرخميدس (Archimedes) الذي اشتهر بأبحاثه في الرياضيات وعلم السوائل والميكانيكا.[٢٦] ومنهم أيضا المهندس المعماري سوستراتوس (Sostratos). ومن الشعراء فيليطاس الكوسي (Philetas de Cos) الذي لقن فن الشعر لبطلميوس الثاني، والشاعر والببليوجرافي المشهور كاليماخوس القوريناني) (Callimachus of Cyrene) [٢٧]

وفي موسيوم الإسكندرية وبالتحديد في مكتبتها تمت دراسة آداب اليونان بشكل منظم، وتحقيق المؤلفات المهمة في الأدب اليوناني، ومنها على سبيل المثال أعمال هوميروس التي أخرجت بصورة لا تختلف كثيراً عن التي بين أيدينا في الوقت الحاضر. كما حققت النصوص ونسبت إلى مؤلفيها وتم استخراج نسخ مقننة للأنواع الأدبية

المختلفة.[٢٨] ولم يقتصر نشاط الموسيون على حقول من المعرفة دون أخرى ولكنه اتسم بالشمولية. ففي الجغرافيا استطاع أريستارخوس (Aristarchus) أن يكتشف دوران الأرض حول الشمس قبل أن يكتشفه كوبرنيكس (Copernicus). وتمكن اراتوسثينس (Eratosthenes) من قياس محيط الكرة الأرضية قياساً يمكن أن يوثق بصحته. أما الفلكي الذي تتيه الإسكندرية وأكاديميتها به فخراً فهو بطلميوس الجغرافي (Claudius Ptolemaeus) الذي أقام مرصداً فلكياً في كانوب، إضافة إلى اشتغاله بالرياضيات وحساب المثلثات والفلك والموسيقى والفلسفة[٢٩]. ومن أهم أعمال بطلميوس كتابة المجسطي (Almagest) الشهير الذي ترجم إلى العربية خلال العهد العباسي ونقله إليها الحاج ابن يوسف بن مطر في عام ٨٣٠م.[٣٠]

وفي مجال الطب ذاع صيت مدرسة الطب الاسكندري وخاصة في التشريح والجراحة.[٣١] ويذكر المؤرخ الروماني أميانوس ماركلينوس (في القرن الرابع الميلادي) أن خير تزكية يمكن أن يحصل عليها أي طبيب هي أن يقال عنه أنه أتم دراسته في جامعة الإسكندرية.[٣٢] وهكذا اجتمع في هذه الأكاديمية أو الموسيون حشد كبير من العلماء ذوي الخلفيات العلمية المختلفة بلغ عددهم في إحدى الروايات مائة شخص.[٣٣] وأغلبية هؤلاء العلماء من الإغريق، إلا أنه وجد بينهم بعض العلماء من جنسيات مختلفة، فمن هؤلاء على سبيل المثال الكاهن المصري مانيتون السمنودي (Manethon de Sebennytos) الذي كلفه بطلميوس الثاني بوضع تاريخ لمصر باللغة اليونانية فأتمه مستنداً على (أرشيف) هليوبوليس وما به من وثائق، وقد عالج مانيتون في سِفْره هذا تاريخ مصر إلى عهد الإسكندر الأكبر.[٣٤] ويبدو أن الاهتمام بالتراث اليوناني كان أحد الأهداف الرئيسة لعلماء الأكاديمية، كما أن العكوف على دراسة أعمال الأوائل مراجعة ونقداً وتصحيحاً قد شغل حيزاً كبيراً من اهتماماتهم وجهودهم.

ومع أن البحوث في الأكاديمية كانت تسير وفق أسس منظمة ومدروسة، إلا أنها لم تكن مبرمجة وإنما كانت للبحث المطلق دون قيد أو شرط.[٣٥]

٣ ـ ١ . مكتبة الإسكندرية

يطلق هذا المصطلح على مكتبة الإسكندرية الرئيسة (البروكيوم) التي تشكل جزءاً من المتحف (الموسيوم أو الأكاديمية) الذي أقيم في حي البروكيوم الملكي. كما يطلق أيضاً على المكتبة الفرعية أو السيرابيوم (Serapeum) المقامة في معبد سيرابيس (Serapis) الواقع في حي راقودة (Rahakotis) الوطني.

١ ـ ٣ ـ ١ . مكتبة البروكيوم (الرئيسة)

وتُعد مكتبة البروكيوم جزءاً مهما من الأكاديمية أو الموسيوم، بل إنه يمكن اعتبارها حقيقة القلب النابض لهذه الأكاديمية المهمة. ولاشك أن مكتبة الإسكندرية هي أشهر مكتبة في العصور القديمة.[٣٦] وكما اختلفت الروايات التاريخية حول مؤسس الموسيوم أو الأكاديمية فهكذا الحال بالنسبة للمكتبة، إلا أنه يسود الاعتقاد أن بطلميوس الأول (سوتر) ٣٢٣ـ٢٨٤ق.م. هو الذي أرسى حجر الأساس بالنسبة للموسيوم بما فيه هذه المكتبة المهمة.[٣٧]

ومع إجماع الروايات التاريخية التي تؤكد أن بطلميس الأول هو المؤسس الحقيقي للمكتبة، إلا أن هذا لا يلغي أو يقلل من أهمية الدور العظيم الذي قام به ابنه بطلميوس الثاني في تطوير المكتبة في عهده حتى أصبحت أفضل كثيراً مما كانت عليه في زمن والده حيث بلغت في عهد الابن ذروة مجدها. مما جعل أمر التأسيس يشتبه على بعض المؤرخين ويظنون أن بطلميوس الثاني هو مؤسس المكتبة.[٣٨] ولعله من غير المحتمل ـ كما يقول محمد حسين في كتابه (مكتبة الإسكندرية في العالم القديم) ـ أن تنشأ المكتبة وتبلغ ذروة مجدها في عهد ملك واحد، أي خلال أربعين عاما.[٣٩] أما تاريخ التأسيس فهو موضع خلاف أيضاً، فبينما يشير الكسندر بارسونز إلى أنها تأسست بين سنتي ٣٠٠ـ٢٩٠ق.م،[٤٠] يحدد ج.و. كلارك والحلوجي قيامها في سنة ٢٨٥ق.م. على وجه التقريب.[٤١] ويعتقد أن ديمتريوس الفاليري (Demeterius of Phalerum الذي كانت له جهود كبيرة في تأسيس المتحف أو الأكاديمية له فضل

المساعدة في إنشاء المكتبة والإشراف عليها وتنظيمها لاسيما في المراحل الأولى من تأسيسها وذلك بين سنتي ٢٩٠-٢٨٢ق.م.[٤٢] بل أن بعض المؤرخين يعتبره المؤسس الفعلي لها، وأنه أول من جمع نواتها من الكتب من بلاد اليونان.[٤٣] وقد يبدو مثيراً للتساؤل ارتباط ديمتريوس الفاليري بالموسيوم ومكتبته لاسيما أن هذا الرجل اشتهر كسياسي كبير وكفيلسوف فضلاً عن كونه مستشاراً لبطلميوس الأول. ورجل له هذه المسؤوليات الجسام لا يتوقع أنه سيقوم بهذا العمل المضني في المكتبة، أو أنه سيجد وقتاً للقيام بذلك. إلا أن أغلبية المصادر التاريخية تجمع على تأييد صحة ماذهبنا إليه من أن جهوده ومساعدته لبطلميوس الأول في تأسيس الأكاديمية والمكتبة حقيقة ثابتة.[٤٤]وعلى أية حال يبدو أن الدهر قد قلب ظهر المجن ثانية لديمتريوس. ولعل السبب ـ كما تذكر بعض الروايات التاريخية ـ أنه عندما كان مستشاراً لبطلميوس الأول قدم توصية له بعدم صلاحية ابنه بطلميوس الثاني (فيلادلفوس) مما جعل الأخير ـ بعد تقلده للأمور ـ ينقم عليه وينفيه خارج مصر.[٤٥]

ومما يميز مكتبة الإسكندرية أنه تعاقب عليها مجموعة من العلماء المكتبيين الأفذاذ. فبالإضافة إلى ديمتريوس، تولاها زينودوتس (Zeonodotus of Ephesus) وهو من مدينة أفسوس على ساحل آسيا الصغرى وذلك خلال الفترة من ٢٨٢-٢٦٠ق.م. كما كان أحد تلامذة الشاعر فيليطاس الكوسي (Philetas Cos) من جزيرة كوس، وهو جامع وناقد لامع قام بجمع وتحقيق ونشر أشعار بعض الشعراء اليونانيين البارزين مثل هوميروس (Homer)، ولعله أول من أخرج نسخة منقحة من ملحمتي الإلياذة والأوديسة (Iliad and Odyssey)[٤٦] وتذكر بعض المصادر التاريخية أن زينودوتس كان أول أمين للمكتبة[٤٧] ولعل المقصود أن زينودوتس أول من تبوأ مركز الأمين، ذلك أن بعضاً من العلماء المكتبيين ممن ارتبطت أسماؤهم بالمكتبة لم يصلوا بالضرورة إلى رتبة أمين المكتبة، وعلى رأس هؤلاء كاليماخوس الشاعر وعالم الببليوجرافيا الشهير.[٤٨]ويعتبر كاليماخوس ـ على الأقل من وجهة النظر المكتبية ـ أهم من عمل بمكتبة الإسكندرية، فضلا عن كونه من أهم شعراء عصره إذ نبغ بشكل خاص في الشعر التراجيدي

حتى أعجب به الكثير من الشعراء الذين أتوا بعده أمثال الشاعرين الرومانيين أوفيد (Ovid) وكونتوليان (Quintlian).

ولد كاليماخوس القوريناثي في حوالي ٣١٠ق.م. ودرس في أثينا، ثم بدأ عمله معلماً في ضاحية اليوزيس Eleusis قرب الإسكندرية. عرف بطلميوس الثاني فضله وعلمه فقربه إليه، ثم مالبث أن ألحقه بالعمل في المكتبة وذلك في الفترة ٢٦٠-٢٤٠ق.م.[٤٩] ورغم عبقرية هذا الشاعر العالم وتعدد مواهبه إلا أنه لم يصل خلال عمله إلى رتبة أمين المكتبة بالرغم من أن بعضاً من تلامذته أمثال أبولونيوس الروديسي (Apollionius of Rhodes) (٢٤٠-٢٣٠ق.م)، وأيراتوسثينس القوريناثي (Eratosthenes of Cyrene) (٢٣٠ - ١٩٦ق.م.)، وأرسطوفان البيزنطي (Aris-tophanes of Byzantium) (١٩٦ - ١٨٥ق.م.) قد تبوأوا هذه المرتبة المهمة. وربما يعود السبب في عدم شغل كاليماخوس لإدارة المكتبة أنه كان مؤلفاً مكثراً لأعمال عديدة أوصلتها إحدى الروايات إلى ثمانين، وإلى أكثر من ثمانمائة على حد تعبير رواية أخرى التي يبدو أن فيها شيئاً من المبالغة.[٥٠] وعلى أية حال ما يعنينا هنا هو فِهْرِسْتَه العام المعروف بالبيناكس Pinakes - مفرده Pinax - وتعني ملاحظة أو قائمة، والذي لا شك يعد أهم أعماله التي خلدها التاريخ. ويعتبر هذا الفهرست المهم أول عمل ببليوجرافي منظم في التاريخ، ولهذا يلقب كاليماخوس بأبي الببليوجرافيا. ورغم عدم وصول هذا العمل كاملاً إلينا، إلا أن بعض النتف المتفرقة هنا وهناك تشير إلى أن البيناكس يقع في ١٢٠ مجلداً. وقد قسم إلى عدة أقسام اختلف المؤرخون في عددها؛ فيذكر جونسون وهاريس في كتابهما (تاريخ المكتبات في العالم الغربي) أنها ثمانية[٥١]، بينما يذكر العبادي في كتابه (مكتبة الإسكندرية في العالم القديم أن عددها عشرة أقسام هي:[٥٢]

١ - شعر الملاحم والشعر الغنائي بصفة خاصة.

٢ - الشعر التمثيلي وينقسم إلى نوعين:

التراجيديا، والكوميديا.

٣ـ كتب القانون.

٤ ـ كتب الفلسفة.

٥ ـ كتب التاريخ.

٦ ـ أدب الخطابة.

٧ ـ كتب الطب

٨ ـ كتب العلوم الرياضية.

٩ ـ كتب العلوم الطبيعية

١٠ ـ متفرقـــات.

والبيناكس وإن وصف بأنه فهرست إلا أنه أشمل مما تعني كلمة فهرست ـ في الاصطلاح المكتبي ـ لأنه يحتوي على معلومات أغزر مما تشتمل عليه الفهارس الحديثة. ففي كل قسم من الأقسام المختلفة وضع الترتيب أبجدياً أو موضوعياً أو زمنياً إذ يقدم لكل مؤلف بترجمة مختصرة، ثم يتبع ذلك ببعض المعلومات الإضافية مثل أسماء أساتذة المؤلف أو المدارس التي تعلم فيها، ثم بثبت بمؤلفاته، ثم بملاحظات حول صحة نسبة الكتب إلى مؤلفيها، وأخيراً يذكر عنوان الكتاب واستهلاله وعدد أسطره.[٥٣] وقد أعتبر فهرست كاليماخوس ـ كما يقول جاكسون ـ تاريخاً للأدب الإغريقي.[٥٤] ولابد أن هذا الفهرست قد استخدم من قبل العلماء والباحثين في الموسيوم، ولاشك أنه أصبح أداة ضرورية لاستخدام رواد المكتبة بشكل عام. ولعل أحد الأسباب التي دعت كاليماخوس إلى جمع هذا السفر المهم ما لاحظه أثناء عمله في المكتبة من تنامي مجموعاتها من اللفائف (الكتب) خاصة في فترة بطلميوس الثاني إلى درجة يصعب معها الاستفادة المرجوة منها إذا لم يكن لدى تلك المكتبة أداة تساعد روادها في الوصول إلى مايريدون بسهولة ويسر. وتشير بعض المصادر إلى أن كاليماخوس استطاع أن يكمل تسجيل عشرين في المائة من محتويات مكتبة الإسكندرية[٥٥] وبعد وفاة كاليماخوس في سنة ٢٤٠ق.م. أكمل رسالته بعض تلامذته من المكتبيين الذين أتوا بعده أمثال أرسطوفان البيزنطي ١٩٦ـ١٨٥ق.م. وأريستارخوس الساموثريسي (Aristarchus of Samothrace) ١٦٠ـ١٤٦ق.م.[٥٦] ويمكن اعتبار أمناء المكتبة أو

العاملين فيها ممن تولوا بعد كاليماخوس جميعاً من الشعراء، أو النقاد، أو الفلاسفة، أو الأدباء ممن تميزوا في حقول معينة ـ ولسنا الآن بصدد تعداد الإسهامات والأعمال التي قاموا جميعاً بإنجازها ـ إلا أن من تلك الأسماء اللامعة أبولونيوس الروديسي، وايراتوستثينس القوريناثي وأرسطوفان البيزنطي، وأونسندر القبرصي (Onesander of Cyprus) (١٠٠-٨٩ق.م.) وخيريمون الإسكندري (Chaeremon of Alexandria) وغيرهم.(٥٧) وكدليل على أهمية منصب أمين المكتبة فلقد أصبح تقليداً في البلاط البطلمي أن يناط أمر تربية أبناء الملك إلى أمين المكتبة. وتطبيقاً لذلك تولى زينودوتس تربية أولاد بطلميوس الأول، وأشرف أبولونيوس الروديسي على تربية بطلميوس الثالث، وعهد إلى إيراتوسثينس بتربية بطلميوس الرابع، كما كان أريستارخورس مربياً لبطلميوس الخامس.(٥٨)

أما مكتبة البروكيوم فقد أطلق عليها عدة أسماء مثل: الكبرى، والرئيسة، وأحياناً المكتبة الأم، وهي المكتبة التي تأسست أولا والتي رجّحنا أنه أسسها بطلميوس الأول في حوالى عام ٢٨٥ق.م. في حي البروكيوم (Bruchcium) ومنه أخذت اسمها.

وأما المكتبة الأخرى فتدعى السيرابيوم (نسبة إلى معبد سيرابيس التي وجدت فيه) كما تسمى الصغرى، أو الفرعية. ويطلق عليها مؤرخو المكتبات الغربيين المكتبة (الابنة) (Daughter Library). وفيما يتعلق بمبنى الأولى وتقسيماته فلا تمدنا المصادر التاريخية بالكثير من التفاصيل عنه. ومما عرف عنها أنها تقع في الأكاديمية أو الموسيوم على مقربة من القصور الملكية.(٥٩) وفي رواية أخرى أن الأكاديمية والمكتبة كانتا تشكلان جزءاً من القصور الملكية.(٦٠) ومن المعروف أن هذه القصور تقع في الحي الملكي أو البروكيوم وهو أكثر أحياء المدينة سكاناً وأعظمها فخامة إذ يطل على الميناء الكبير وتحيط به الأسوار المنيعة. وتدل دراسة الحفريات التي تمت في موقع مكتبة برجاموم في آسيا الغرى بأنه جرت العادة أن يكون هناك قاعة مركزية قد تكون مقدسة، أو أنها أعدت لبعض الأغراض، لكن مثل هذه القاعات بدأت تختفي من

المكتبات منذ عهـود الرومـان وأصبحت المكتبة عبارة عـن مجموعة مـن الغرف ذات الحجـم المتوسـط. [٦١]

٢-٣-١. مكتبة السيرابيوم (الفرعية)

أقيمت مكتبة السيرابيوم في معبد السيرابيوم (Serapis) في حي راقودة (Rakotis) أحد الأحياء الشعبية. [٦٢] وقـد أنشئت هذه الكتبة بعدما يقرب من خمسين سنة من قيام مكتبة البروكيوم، وكانت أكثر عمومية من ناحية الاستخدام. [٦٣]

ويذكر إدواردز مؤرخ المكتبات الشهير في كتابه (Libraries and Founders of Lib-raries) أن مكتبة السير ابيوم قد شيدت بعد أن ضاقت مكتبة المتحف أو الموسيوم بما فيها من مجلدات وصل عددها إلى ٤٠٠ ألف لفافة، مما أتاح لمكتبة السير ابيوم النمو بشكـل مطرد حتى وصـل عدد مجلداتها إلى ٣٠٠ ألف لفافة، ليصل بذلك مجموع محتـويات المكتبتـين معـا إلى ما يقـارب ٧٠٠أ لف لفافة أو مجلد. [٦٤] وكما اختلفت الـروايات حول من أوجـد المكتبـة الـرئيسة،. اختلفت أيضا حول من أسس المكتبة الفرعية، فإدوارد إدواردز[٦٥]، والمرجونسون ومايكل هاريس - مثلا - يشيرون إلى أنه بطلميوس الثاني هو الذي أنشأها. [٦٦] بينما يذهـب مؤرخون وكتاب آخرون منهم - على سبيل المثال - موسوعة المكتبات وعلم المعلومات[٦٧]، وجيمس أولي[٦٨] إلى أنها وجدت في فترة بطلميوس الثالث، ويرجح الكـاتب أنهـا استحدثت فـي عهـد الأخير لعــدة أسبـاب منهـا :

أولاً: أننا إذا سلمنا بأنها تأسست بعد حوالي ٥٠ سنة من تأسيس المكتبة الرئيسة في المتحف أو الموسيوم والتي سبق أن رجحنا أنها أنشئت في عام ٢٨٥ق.م.، فهذا معناه أن مكتبة السير ابيوم قد أوجدت في حوالي ٢٣٥ق.م. تقريباً، وهذا التاريخ يقع في فترة بطلميوس الثالث (٢٤٧-٢٢١ق.م.).

ثانيـا: أن فترة بطلميوس الثـالث تعـد امتـدادا طبيعياً لفترتي الازدهار في عهدي الإمبراطور بطلميوس الأول والثاني حيث بلغت دولة البطالمة أوج عظمتها في

عهـد بطلميوس الثاني . ولقـد غـص بلاط بطلميوس الثالث (يورجيتوس الأول) ببعض رجال العلم والأدب الذين خدموا والده (فيلادلفوس) ، وبين هؤلاء أرسـطوفـان البيزنطي . ولعـل أهـم شخصية فـي عهـده كان أمين المكتبة ايراتوسثينس .

ثالثاً : وأخيرا، هناك الكثير من المصادر التاريخية المهمة - أشرنا إلى بعضها - تجمع على أن المكتبة الفرعية أو السير ابيوم قـد تأسست فـي فترة بطلميوس الثالث .

وعـلى أية حال ازدادت أهمية هذه المكتبة على مر السنين لاسيما بعد أن احترقت شقيقتهـا الكـبرى (البروكيوم) فنمت مجموعاتها بشكل كبير ، وامتدت إليهـا الحركة العلمية حتى أصبحت المحـاضرات والدروس تلقى في أروقة معبد السير ابيوم وفي الغرف الملحقة به حيث تقع المكتبة .[٦٩]

٤ - ١ . مصـادر الاقتنـاء

المكتبة تشبه الكائن الحي الذي يحتاج إلى مقومات أساسية ليعيش ويتطور . وتزويد المكتبة بالمواد أحد المقومات الرئيسة التي لاغنى لأي مكتبة عنها . ويبدو أن ملوك البطالمة قد أدركوا هذه الحقيقة فعملوا على إثراء مكتبة الإسكندرية بالكتب من شتى بقاع العالم المعروف، وباللغات السائدة وخاصة في مناطق البحر المتوسط أو ما يعرف الآن بالشرق الأوسط والهند، فضلاً عن اللغة الإغريقية .[٧٠] ولقد استخدم البطالمة طرقاً ووسائل متعـددة لتزويد مكتبتهم باللفائف (المجلدات) بعضها معروف لنا في هذا العصر ، وبعضها غير معروف . بل أنهم اتبعوا أساليب يمكن أن توصف بالتعسف . وكمثال على ذلــك أن بطلميوس الثـالث فرض على جميع المســافـرين الـذين يصلون إلى الإسكنـدرية وبحـوزتهم بعض الكتب تسليمها إلى تلك المكتبة - إذا لم تكن ضمن مجمـوعـاتهـا - حتى يصـار إلى نسخها على ورق بردي رخيص من قبل كتبة معينين خصيصاً لهذا الغرض ومن ثم تعطى هذه النسخ لأصحاب الكتب، ويتم الإبقاء على أصول الكتب في المكتبة .[٧١] بل إن هذا الإجراء قد طبق أيضاً على السفن التي تصل

إلى ميناء الإسكندرية التي كانت تجبر على تسليم أي كتب قد تحملها إلى المكتبة حتى يصار إلى نسخها. ليس هذا فحسب، وإنما تذكر بعض الروايات أن أحد حكام البطالمة استغل مجاعة أصابت أثينا في إحدى السنوات ورفض تزويد الأثينيين بالطعام حتى أعطوه نسخاً معتمدة من مآسي اسخيلوس (Aeschylus) وسفوكليس (Sophocles) ويوربيدس (Euripides) ولما تم له ذلك سخا في توفية ثمنها ، فضلاً عن إرسال مقادير الطعام المتفق عليها. (٧٢) ويشير إدوارد إدواردز إلى أن بطلميوس الثالث استعار أعمال سفوكليس ويوربيدس واسخيلوس ونسخت في مكتبة الإسكندرية بأفضل طريقة ممكنة، أمر بإبقاء الأصول في المكتبة وأعاد نسخها إلى الأثينيين ودفع الغرامة المقررة وقدرها ١٥ تالنتا (Talent) (٧٣)، وهي التأمين النظامي من أجل عودة أصول تلك الكتب.

أما طرق التزويد المتبعة في المكتبة ـ المعروفة لنا في هذا العصر ـ فأحدها الشراء، ويتم عن طريق مندوبي المكتبة المنتشرين في كل أجزاء آسيا واليونان، وهؤلاء كانوا مفوضين لشراء الكتب النادرة والأعمال الجيدة. وقد حصلت المكتبة عن طريق هذه القناة الحيوية على كتب كثيرة مهمة مثل كتب أرسطو (Aristotle) (٧٤)

ويبدو أن المكتبة قد احتكرت التجارة الدولية للكتاب لفترة من الزمن وذلك من خلال قيامها بدور أشبه ما يكون بعمل دور النشر في وقتنا الحاضر . وكان هذا ممكناً لكونها أكبر مكتبة في العالم ضمت بين جنباتها كماً هائلاً من المخطوطات الأصلية إلى جانب اشتمالها على عدد كبير من النساخ الذين يقومون بعملية ا لنسخ على نطاق واسع ومن ثم طرح هذه الكتب للبيع. (٧٥)

وفضلاً عن استخدام عملية نسخ الكتب كأحد الأساليب التي وظفت لإثراء المكتبة، وجد التكليف بالكتابة باللغات الأخرى أو الترجمة منها. وهذا الأسلوب في حقيقة الأمر يعد رافداً لايستهان به لزيادة حصيلة المكتبة من الكتب. ويمكن أن نذكر بهذا الصدد أن الكاهن المصري مانيتون السمنودي ـ الذي عين أساسا ليكون مترجماً ـ

قد كلف من قبل بطلميوس الثاني بوضع تاريخ لمصر باللغة اليونانية ينتهي بعصر الإسكندر الأكبر. ورغم ضياع أغلبية أجزاء هذا السفر المهم إلا أن تقسيم مانيتون للتاريخ المصري إلى ثلاثين أسرة لايزال معمولاً به إلى الآن.[٧٦] ولابد أن المكتبة أيضاً اشتملت على تاريخ العراق القديم الذي ألفه باليونانية بيروسوس (Bcrosses) كاهن الإله (بعل ـ مردوك)، إلا أنه لسوء الحظ فقد هذا السفر القيم. ولابد والحال هذه لمكتبة جمعت الكتب من الشرق والغرب أنها ضمت أيضاً بين جنبات أرففها مجموعة من الكتب الفينيقية مثل كتب ميتاندر الصوري، وديوس هيبكر اتس (Dius Hypaic-rates) وسانشينوثيون (Sanchuniathon) وغيرهم.[٧٧] كما لابد أنها حوت كتباً لبعض الهنود خاصة أن ملك الهند أسوكا (Asoka) (٢٧٣-٢٣٢ق.م.) أرسل في النصف الأول من القرن الثالث ق.م. إلى بطلميوس الثاني يدعوه لاعتناق البوذية.[٧٨]

أما الموضوع الأكثر إثارة للجدل ـ ونحن بصدد الحديث عن الترجمة والنقل من اللغات الأخرى ـ فهو موضوع الترجمة السبعينية، ومفاد هذه الرواية المشهورة أن ديمتريوس الفاليري أشار على بطلميوس الثاني بأن يبعث إلى اليعازر (Eleazar) حاخام بيت المقدس يحثه على إرسال وفد من علماء الدين اليهود ممن يجيدون اليونانية والعبرية ليقوموا بترجمة كتب التشريع العبراني إلى اليونانية لتكون متاحة ليهود مصر الذين لا يعرفون اللغة العبرية. وتمضي الرواية قائلة إن الحاخام استجاب للطلب وأرسل ٧٢ من العلماء أنجزوا المهمة في ٧٠ يوماً، ولهذا اشتهرت بالترجمة السبعينية.[٧٩]

وجاء ذكر تلك القصة في بعض المصادر التاريخية التي استندت كثيراً ـ على ما يبدو ـ على مصادر قديمة ككتابات المؤرخ اليهودي يوسفوس التي ينبغي توخي الحذر الشديد عند أخذها خاصة عندما يتعلق الأمر بشأن من شؤون اليهود. ويشكك بعض الباحثين والمؤرخين كثيراً في وقوع القصة، بل إن المؤرخ الإنجليزي المعروف إدوارد إدواردز

يذهب إلى حد القول بأن الرواية ماهي إلا خرافة (Fable) ليس لها أي أساس من الصحة.[٨٠] ومن الأسباب التي دعت إلى التشكيك في القصة أن ديمتريوس الفاليري الذي له دور كبير فيها أفل نجمه في عهد بطلميوس الثاني - كما مر بنا - ونفى إلى خارج مصر. هذا أولاً [٨١]، وثانياً، أن هذه الرواية ربما كرست من قبل بعض المؤرخين وخاصة المؤرخ اليهودي يوسفوس للإثبات بأن لليهود تراثاً وفكراً يفوق مالدى اليونانيين. وثمة سبب آخر يضاف إلى ما سبق، هو أن يهود الإسكندرية ربما كانوا أكثر ثقافة وعلماً من يهود فلسطين، وبالتالي فإنه من المرجح أنهم هم الذين قاموا بترجمة التوراة إلى اللغة الإغريقية وخاصة الأسفار الخمسة - إذا ثمة ترجمة.[٨٢]

أما التأليف فكان - بطبيعة الحال - أحد القنوات الرئيسة لإغناء مكتبة الإسكندرية بالكتب. وقد سبق التنويه إلى أنه كان هناك ما يقرب من ١٠٠ من العلماء والباحثين العاملين في الموسيوم أو الأكاديمية مهمتهم البحث والتأليف.[٨٣] ولاشك أن الإنتاج العلمي لهؤلاء يضاف إلى الرصيد المعرفي للمكتبة.

٥ - ١ . مقتنيات المكتبة

من الصعوبة بمكان - حتى في وقتنا الحاضر - إعطاء رقم دقيق لمجموعات مواد أي مكتبة. وأما عدد كتب مكتبة الإسكندرية - فكما أسلفنا - هناك مكتبتان الرئيسة في الموسيوم وهي الأكثر كتباً، والفرعية في معبد السيرابيوم وهي أحدث تأسيساً وأقل أهمية.

ويجب الإشارة إلى أن عدد الكتب التي ذكرها عامة المؤرخين لمواد هذه المكتبة فهي أرقام تقريبية من ناحية، كما أنها تختلف باختلاف الروايات من ناحية أخرى.

وقد وصلت مجموعة المكتبة الرئيسة في نهاية حكم بطلميوس الثاني إلى حوالي ٥٠٠ ألف لفافة بردية، بل إن إحدى الروايات أوصلتها إلى حوالي ٧٠٠ ألف لفافة (مجلد).

أما المكتبة الفرعية أو السير ابيوم فتتضارب حولها الروايات أيضا. فبينما تذكر إحدى الروايات أن مجموعاتها من الكتب تربو على ٤٢ ألف لفافة، نجد أن روايات أخرى توصلها إلى ما يقارب ٣٠٠ ألف لفافة، خاصة بعد أن أضيف إليها مجموعة كتب مكتبة برجاموم التي يقدر عددها بـ ٢٠٠ ألف لفافة (مجلد) والتي تذكر بعض الروايات أن ماركوس انطونيوس (Mark Anthony) أهداها إلى كليوباترا. (Cleopatra) [٨٤]

ويقدر إدوارد إدواردز عدد الكتب في المكتبة الرئيسة بـ ٤٠٠ ألف لفافة، وفي الفرعية بـ ٣٠٠ ألف لفافة ليصبح مجموع المكتبتين معاً ٧٠٠ ألف لفافة. [٨٥] بينما المرجونسون ومايكل هاريس يقدران كتب المكتبتين بما يزيد على ٧٠٠ ألف لفافة بردية، إلا أنهما لا يغوصان في تفاصيل المجموعات في كل مكتبة على حدة. [٨٦] أما سيدني جاكسون فيذكر لنا شيئاً عن تطور المجموعات حيث قدرت مجموعات المكتبة (لعلها الرئيسة بالذات لأن الفرعية لم تكن قد وجدت بعد) في عهد بطلميوس الأول بـ ٢٠٠ ألف، بينما تقول رواية أخـرى إن الكتب وصلت في نهاية عهد بطلميوس الثاني إلى ١٠٠ ألف لفافة فقط. وفي رواية أخيرة وصل عدد كتب المكتبة إلى ٥٠٠ ألف لفافة وإلى ٧٠٠ ألف لفافة في وقت يوليوس قيصر. [٨٧]

وهناك رواية يعتقد أنها وردت على لسان كاليماخوس تشير إلى أن عدد الكتب في مكتبة السير ابيوم بلغ ٤٢,٨٠٠ لفافة، وأن عدد كتب مكتبة البروكيوم وصل إلى ٤٠٠ ألف لفافة مختلطة أو منوعة و٩٠ ألف مفردة. [٨٨] ولابد من الإشارة إلى أن لفظ كتاب أو مجلد يعني هنا لفافة بردية وذلك بمفهوم القرن الرابع قبل الميلاد، وليس بمفهوم الكتاب المعروف لنا في الوقت الحاضر. [٨٩] ولعل حجم المجلد بلغة ذلك الوقت يعادل ١٠٪ تقريباً من المجلد في المفهوم العصري. وربما كان أطول لفائف البردي التي عثر عليها قد بلغ نحوا من ٣٥ قدماً[٩٠]، أما اللفافة العادية فيبلغ طولها حوالي ٢٠ قدماً، وتتسع لحوالي ٥٦ صفحة، في كل صفحة ٣٦ سطراً تقريباً، وطول كل سطر منها ٣,٤

بوصة. [٩١] وإذا ما طويت الفافة البردية فإنها تتخذ شكل اسطوانة قطرها يقدر بـ ٥ أو ٦ سم بحيث يسهل الإمساك بها[٩٢]. وعادة تمثل اللفافة المفردة كتاباً واحداً، أما اللفافة المجزأة فتضم عدة مجلدات، فعلى سبيل المثال، لأول مرة وبأسلوب علمي تمكن زينودوتس من تحقيق وإخراج الإلياذة والأوديسة لهوميروس في ٢٤ مجلداً أي ٢٤ لفافة بردية. [٩٣] ومن المعلوم أن الكتابة على لفافة البردي تتم ـ في أغلب الظروف ـ على وجه الورقة (Recto) الذي وضعت فيه الشرائح أفقياً، ومن النادر أن يكتب على ظهر الورقة (Verso) حيث تم وضع الشرائح رأسيا. [٩٤] وبهذا تختلف لفافة البردي (Papyrus roll) عن الرق كوسيط للكتابة (Parchment) الذي يكتب عليه من الوجهين. ولهذا السبب لا بد أن عدد مجلدات مكتبة الإسكندرية قد أخذ في التقلص بعد أن بدأت في استخدام الرقوق كوسيط للكتابة بدلاً من ورق البردي. ولم يقم الرق ـ الذي طور في عدة دول من بينها مصر ـ لم يقم بدور يذكر قبل القرن الثاني الميلادي، إلا أنه منذ هذا التاريخ ومابعده أخذ استعماله يعم بصورة مطردة. [٩٥] وكان استخدام الرق في البداية قاصراً على الرسائل والوثائق المهمة، إلا أنه بمجيء القرن الرابع الميلادي كان الكثير من موجودات مكتبة الإسكندرية قد نقل على الرقوق. [٩٦].

أما البردي ـ الذي لم يصمد أمام الرق في أوروبا إلا إلى نهاية القرن الرابع الميلادي ـ فقد ظل يستخدم في بلاد العرب جنباً إلى جنب مع الرق وذلك حتى بدأت صناعة الورق بالانتشار في هذه البلاد منذ أواخر القرن الثامن الميلادي. [٩٧]

٦ ـ ١ . مكتبتا الإسكندرية وبرجاموم

لاجدال في أن مكتبة الإسكندرية كانت أشهر مكتبة في العصور القديمة، لكنها ليست أقدمها. وقد كان لها علاقات من نوع ما مع بعض المكتبات التي وجدت قبلها أو عاصرتها. وقد سبق التنويه ـ عند الحديث عن تنمية مجموعات المكتبة ـ أنها كانت تستعير بعض الأعمال من مكتبات أثينا وتقوم بنسخها كما كانت تبقى تارة أخرى على

أصـول بعض الكتب المهمة لديها. ويمكن تسجيل جانب آخر من علاقات مكتبة الإسكنـدرية مع مكتبـة مهمـة وقـديمـة أخـرى هي مكتبـة أرسـطو (Aristotle) (٣٨٤ـ٣٢١ق. م.) الفيلسوف اليوناني الشهير مؤسس مدرسة الفلسفة البارزة المعروفة باللقيوم (Lyceum) إذ يسود الاعتقاد بين المؤرخين الغربيين على نحو خاص أن أرسطو استطاع أن يكون مكتبة جمعها إما بالشراء أو عن طريق هدايا الكتب التي يهبها له تلاميذه ومحبوه.[٩٨] ورغم أن حجم هذه المكتبة غير معروف لنا على وجه الدقة، إلا أنه من المرجح أنها تصل إلى بضع مئات من الكتب[٩٩]

وطبقاً لأثينايوس (Athenaeus) فإن بطلميوس الثاني قد اشترى بعضاً من كتب تلك المكتبة وأضافها إلى مكتبة الإسكندرية.[١٠٠] ويؤيد هذا القول جونسون وهاريس في كتابهما (المكتبات في العالم الغربي) ويرجحان أن بعضاً من كتب مكتبة أرسطو أو نسخاً منهـا وصلت بطريقـة أو أخـرى إلى مكتبـة الإسكنـدرية.[١٠١] ولسنا بصدد تحديد الأسلوب الذي اتبعه البطالمة في الحصول على تلك الكتب بقدر الإشارة إلى القيمة المهمة لهذه الإضافة، وذلك لعدة أسباب منها: أولاً، أنه طبقاً لاسترابون (Strabo) يمكن اعتبار أرسطو أول من جمع مكتبة في اليونان، ومن أجل ذلك دخلت هذه المكتبة التاريخ من أوسع أبوابه، وبالتالي اعتبرت نشأتها بداية لتاريخ المكتبات في الغرب.[١٠٢] وثمة سبب آخر هو أن أهمية تلك المكتبة لا تكمن فقط في كونها مكتبة ضاربة في أعماق التـاريخ، ولا لكثـرة كتبهـا، ولا لإشتـمالها على مواضيع متعددة، ولا لكونها مكتبة فيلسوف مشهور، لكن أيضاً لأنها مكتبة أكاديمية أخذ منها الكثير من العبر فيما يتعلق بالحفظ وانتقال أوعية المعرفة من جيل إلى آخر.[١٠٣]

أما علاقة مكتبة الإسكندرية بمكتبة برجاموم فهي علاقة من نوع آخر تراوحت بين الشد والجذب. ومن المعلوم أن الأتاليين ـ شأنهم شأن البطالمة ـ تفردوا بالحكم في آسيا الصغرى بعد فترة من وفاة الإسكندر الأكبر وأصبحت برجاموم أو برجامون أو برغامة

ـ كما تسمى أحياناً ـ عاصمة لهم. وقد أسس ملوك الأسرة الأتالية الحاكمة (Attalid dynasty) مكتبة برجاموم التي ازدهرت بشكل خاص في عهد الملك يومينيس الثاني (Eumenes II) ، (١٩٧-١٥٩ق. م.) الذي أوجد لهذه المكتبة مبنى جديداً ووفر لها الدعم والتشجيع حتى أصبحت بحق تلي مكتبة الإسكندرية من ناحية الأهمية.[١٠٤] ولعل الاهتمام المتنامي بشؤون المكتبة من قبل ملوك الأتاليين ـ خاصة يومينيس الثاني ـ يعكس حلمهم في أن تصبح مكتبة برجاموم في مصاف مكتبة الإسكندرية التي سبقت مكتبتهم بحوالي قرن من الزمان. أما ملوك البطالمة فلعلهم شعروا بهذه المنافسة ومن ثم قرروا التصـدي لمكتبـة برجـاموم وذلك بإيقاف تصدير البردي ـ الوسيط الرئيس للكتابة في ذلك الوقت ـ إلى مملكة برجامون وذلك في محاولة منهم لتحجيم مكتبتها لئلا تنافس مكتبة الإسكندرية.[١٠٥]

وينكر بعض المؤرخين والباحثين أن تكون المنافسة سبباً لحظر تصدير البردي إلى مملكة برجاموم وذلك بحجة أن هذه المملكة الصغيرة ـ لا تعد في رأيهم منافساً قوياً ـ ولا يمكن لها أن تتبارى مع مملكة البطالمة ذات الحضارة العريقة.[١٠٦]

أما مكتبة برجاموم التي أثير حولها الجدل فتأسست بعد مكتبة الإسكندرية بحوالي قرن من الزمان.[١٠٧] وازدهرت لمدة تقارب قرنا ونصف القرن وبالتالي لا يمكن لها أن تنافس مكتبة الإسكندرية العريقة التي ازدهرت ما يربو على أربعة قرون.[١٠٨] وبالنسبة لحظر تصدير البردي إلى الخارج فيعزون سببه إلى الطلب المتزايد عليه في داخل مصر، وخاصة في زمن بطلميوس السابع.[١٠٩] ويحسن بنا الإشارة إلى رواية أخرى ربما لعبت دوراً في حظر تصدير البردي إلى مكتبة برجاموم مفادها أن بطلميوس الخامس اتهم ملك برجاموم يومينيس الثاني بإغراء أحد أشهر مكتبيي مكتبة الإسكندرية واسمه أرسطوفان البيزنطي (Aristophanes of Byzantium) الذي عمل في مكتبة الإسكندرية في الفترة من ١٩٥-١٨٠ق. م. بالمجيء إلى مملكة برجاموم للعمل في مكتبتها، وأن أمـر هذه

الصفقة اكتشف قبل اتمامه مما أدى إلى سجنه، وإلى اتخاذ إجراءات انتقامية ضد مكتبة برجاموم تمثلت في حظر تصدير البردي إليها[١١٠] ومهما كانت الأسباب الكامنة وراء حظر تصدير البردي إلى الخارج، وهل هي أسباب داخلية أم غير ذلك، فإن هذا الفعل أفاد في تطوير مادة جديدة للكتابة عرفت باسم الرق أو البرشمان (Parchment) ولعبت مملكة برجاموم ومكتبتها دوراً كبيراً في تطويره.[١١١]

وعلى أية حال يبدو أن المنافسة بين مملكتي البطالمة وبرجاموم قد زالت بفعل التغيرات السياسية التي حصلت في كلا البلدين لاسيما بعد وصول كليوبترا (Cleopatra) إلى العرش البطلمي. كما أن عصر الازدهار في دولة البطالمة قد انتهى بسبب الخلافات الحادة التي بدأت تظهر بين حكام البطالمة المتأخرين وبشكل واضح بعد وفاة بطلميوس السابع (Eueragetes II) في عام ١١٦ق.م. والانقسام الذي نشأ بين أبنائه بسبب التكالب على الحكم إلى درجة أن حدهم واسمه إسكندر الأول دس السم لأمه كليوباترا في محاولة للتخلص منها.[١١٢]ونتيجة لتلك الخلافات والانقسامات الشديدة بين أفراد الأسرة الحاكمة دخلت دولة البطالمة في دور الانحلال حتى أن بطلميوس الحادي عشر (Auletes) لجأ إلى روما مستجديا حكامها ليعيدوا له عرشه مما أتاح لهؤلاء السيطرة على الأمور إلى حد أن الحكام البطالمة الذين خلفوا بطلميوس الحادي عشر كانوا يحكمون مصر تحت إشراف روما ووصايتها.[١١٣]

ولم تكن الأوضاع السياسية في مملكة برجاموم أحسن حالاً من مثيلتها في مصر، إذ ساءت بشكل كبير بعد وفاة أتالوس الثاني (Attalus II) في عام ١٣٨ق.م.[١١٤]وبطبيعة الحال انعكس هذا الوضع على برجاموم نفسها. فلم تعد تحظى بنفس الرعاية التي كانت تجدها أثناء أوائل حكام الأتاليين الأقوياء، كما فقدت كثيراً من مجموعات كتبها نتيجة لاحتلال الرومان.[١١٥] أما الجزء المثير للجدل في علاقات الإسكندرية ببرجاموم فيتمثل في القصة التي أشار إليها المؤرخ بلوتارك (Plutarch) القائلة بأن ماركوس أنطونيوس (Mark Anthony) الذي أصبح له علاقات

خاصـة مع كليوباترا ـ أهداها ٢٠٠ ألف مجلد من مكتبة برجاموم كتعويض لها عن مكتبة الإسكندرية التي يعتقد أنها احترقت في عام ٤٧ق. م. [١١٦]

وفيما يتعلـق بقضـية التعويض ، أو هدية ماركوس انطونيوس إلى كليوباترا فـإن هنـاك بعض التساؤلات الملحة التي يمكن أن تثار حولها أهمها:

أولا ، مدى صدق هذه الـرواية ، وثانيها ، يتعلق بالمكان الذي وضعت فيه تلك الكتب. وللإجابة على ذلك نقول إن هناك الكثير من الجدل المثار حول هذه القصة. فبعض المصادر التاريخية شككت كثيراً في صحتها ، بل واستبعدت[١١٧] وقوعها ، وبعض آخر من المصادر عول كثيراً على بعض المصادر القديمة مثل بلوتارك الذي ضمن روايته أن ماركـوس انـطونيوس أهـدى لكيلوباترا ٢٠٠ ألف لفافة مأخوذة من مكتبة برجاموم لتعويضها عن الخسارة التي نتجت عن احتراق مكتبة الإسكندرية[١١٨] ، وهناك رواية ثالثـة مختلفـة وردت في بعض المصـادر مفادها أن الأمبراطور أغسطس (Augustus) قـد أعاد جزءاً من تلك الكتب ، أو كلها إلى مكتبة برجاموم. [١١٩]

أما المكان الذي وضعت فيه تلك الكتب فهو موضوع خلاف بين المؤرخين أيضاً ، بعضهم يرى أن تلك الكتب وضعت في مكتبة السير ابيوم[١٢٠] وهذا هو الرأي الراجح على ما يبدو الذي أشارت إليه أغلبية المصادر التاريخية. ولو صح هذا الرأي فلابد أن مكتبة السير ابيوم رفعت رصيدها إلى ما يقارب ٣٠٠ ألف لفافة (مجلد). [١٢١] أما الرأي الآخر فيتضمن أن تلك الهدية من الكتب قد وضعت في غرف خاصة في القصور الملكية في حي البروكيوم إلى أن تم تشييد معبد القيصريوم (Caesareum) أو السباستيوم (Sebasteum) [١٢٢]

٧ ـ ١ . مصير المكتبـة

يقصـد بمكتبـة الإسكندرية ـ كما أسلفنا ـ المكتبة الرئيسة والمكتبة الفرعية معاً. وبالنسبة للأولى هناك الكثير من الدلائل التي تشير إلى أنها دمرت كلياً أو جزئياً نتيجة

للحريق الذي أضرمه يوليوس قيصر (Julius Caesar) في الأسطول المصري الراسي في الميناء القريب من حي البروكيوم حيث تقع المكتبة وذلك في عام ٤٧ق. م.[١٢٣] هذا الحريق أتى على دار الصناعة وما جاورها من المباني التي كان من بينها ـ حسب رواية بلوتارك ـ المكتبة الرئيسة. وقد نص بلوتارك في روايته تلك على أنه: «. . . لما أوشك اسطول (قيصر) أن يقع في أيدي أعدائه، اضطر إلى أن يدرأ الخطر بالحريق، وانتشرت النار من الترسانة البحرية ودمرت المكتبة الكبرى».[١٢٤]وقد تضاربت آراء الكتاب والمؤرخين القدماء فيما يتعلق بهذا الأمر. وممن أيد صحة وقوع الحريق سنكا (Seneca) وديو كاسيوس (Dio Cassius)، أما الذين صمتوا ولم يذكروا شيئا عن الحادث فمنهم يوليوس قيصر نفسه، واسترابون. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو لو كان يوليوس قيصر قد تسبب فعلاً في حريق المكتبة فهل كان حقيقة سيذكره في كتاباته؟ سؤال مهم يعتقد الكاتب أن من الصعوبة بمكان الإجابة عليه. أما استرابون ـ الذي تذكر بعض المصادر أنه قضى بالمكتبة ٢٠ عاما وبفضل ما كتبه وصل إلينا الكثير من التفاصيل عن تنظيمها ـ فقد أغفل بشكل تام ذكر هذا الحدث في الآثار التي وصلت إلينا.[١٢٥] ويعلل استاكي (Staquet) هذا الصمت بأنه جاء بناءً على نصيحة والي مصر إذ ذاك أيليوس جالوس (Aelius Gallus) الذي رجا استرابون ألا يذكر في تاريخه شيئاً يمكن أن يسيء إلى مولاه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه يسود الاعتقاد أنه لم يكن من اليسير في روما أيام أغسطس أن يكتب استرابون عن حادث في ذكره إثارة لألم الأمبراطور.[١٢٦]

ومن الملاحظ أن للرومان منزلة مهمة في التاريخ الغربي بشكل عام ويحظى يوليوس قيصر بشكل خاص في ذلك التاريخ بشيء كثير من الاحترام والتقديس. يقول العبادي: «. . ونعرف أن شخصية يوليوس قيصر تحتل مكانة فريدة وتحوطها هالة ذات طابع أسطوري، قد استقرت في العقل الغربي على مر العصور، ومن الدارسين من لم يخلع عنه هذه القدسية القيصرية (Divus Juluin) وإن اجتهد. ولذلك فهم يتحرجون من القول بأن قيصر ـ حتى على غير قصد ـ قد تسبب في تدمير واحد أكبر

مثل مكتبة الإسكندرية ويحتجون في ذلك بأن صمت قيصر أبلغ دليل على عدم حدوثه». [١٢٧]

ويعتمد مؤرخو المكتبات المحدثين على كتابات الأوائل ويشيرون إلى الحريق وإن كان بعضهم يقلل من أهمية هذه الفعلة، أو يحاول إيجاد تبريرات قد لا تكون مقنعة بما فيه الكفاية. وعلى سبيل المثال، يعترف إدوارد إدوارز بوقوع الحريق وأنه أتى على مجموعات كتب البروكيوم إلا أنه يعزو السبب في ذلك إلى ما أسماه بإهمال أو طيش الجنود. [١٢٨] أما جونسون وهاريس فيوردان القصة ويذكران أن أساسها المؤرخ ديوكاسيوس ويشيران إلى أنه إذا كان ثمة كتب قد احترقت في الحادث فلابد أنها كتب كانت مخزونة في أحد المستودعات في الميناء وليست المكتبة نفسها. [١٢٩] ويشكك سيدني جاكسون في كتابه (المكتبات وفن المكتبات في الغرب) أن تكون النار قد طالت المكتبة نفسها لبعدها عن مكان اندلاع الحريق. [١٣٠] أما الموسوعة الأمريكية الدولية فتشير إلى أن الجزء الرئيس من مكتبة البروكيوم قد أتلف في الحريق الذي نشب خلال حصار يوليوس قيصر للإسكندرية في عام ٤٧ق.م. [١٣١]

وما هو أقرب للصواب - في رأي الكاتب - أن مكتبة البروكيوم قد طالها الحريق، ولكن يبدو أن التدمير لم يكن كاملاً. وبقيت المؤسسات العلمية والمكتبات في الإسكندرية تؤدي عملها في عهد الرومان - ولكن بدرجة أقل مما كانت عليه خلال حكم البطالمة - حتى حلول القرنين الثالث والرابع حيث حل الدمار الشامل بحي البروكيوم. ولعل عهد الإمبراطور الروماني كراكلا (٢١١-٢١٧م) كان بداية عهود الشؤم على الإسكندرية. فلقد قتل هذا الإمبراطور كثيراً من سكانها وهدم الكثير من مبانيها، وألغى مكافآت وامتيازات علماء الموسيوم وعاملهم بقسوة وطرد الأجانب منهم. [١٣٢] ولم يكن عهد أورليان Aurelian (٢٧٠-٢٧٥م) بأحسن حال من عهد كراكلا. فعندما أتى لقمع ثورة الإسكندرية في عام ٢٧٣م أحرق جزءاً كبيراً من المدينة وحظي حي البروكيوم الحصين بنصيب وافر من هذا التدمير [١٣٣] ولقد كان ذلك التدمير

من القسوة إلى درجة أن كثيراً من علماء الموسيوم فروا إلى خارج البلاد، والبقية الباقية لجأوا إلى معبد السيرابيوم.[١٣٤] وثالثة الأثافي في مسلسل التدمير تلك الفتن والاضطرابات الناتجة عن المنازعات الدينية التي كانت بداياتها الاضطهاد ضد المسيحيين على يد الإمبراطور دقلديانوس الذي مالبث أن تحول ضد الوثنيين بعد أن تمكنت المسيحية وقويت شوكتها في مصر. ففي سنة ٣٩١م قام البطريق ثيوفيلوس Theophilus بهدم معبد السير ابيوم أحد المعاقل الرئيسة للوثنية في الإسكندرية. ولقد أكمل رسالة أورليان الإمبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) وذلك عندما أمر بإغلاق جميع المدارس الوثنية.

أما مكتبة السير ابيوم فمن المعروف أن أهميتها ازدادت على مر السنين ولاسيما بعد اختفاء شقيقتها الكبرى الموسيوم. ولاشك أن وجود الأولى في معبد السير ابيوم الحصين قد كفل لها - ولو مؤقتاً - شيئاً من الحماية وذلك لسببين أولهما؛ أن معبد السير ابيوم أهم معبد وثني مما أضفى عليه الكثير من الهيبة والاحترام، وثانيا؛ أنه عبارة عن قلعة حصينة قوية بني على ربوة مرتفعة مما أعطاه أهمية استراتيجية ضد أي هجوم.[١٣٥] لكن يبدو أن بقاء معبد السير ابيوم كمعقل أخير للوثنية وللفكر والثقافة الإغريقية لم يستمر طويلاً بعد غياب الموسيوم. وبطبيعة الحال كان مصير مكتبة السير ابيوم مرتبطاً بمصير المعبد ذاته. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا المعبد كان يحظى بالكثير من الهيبة والتقدير خلال العهود الوثنية، لكن هذا بدأ يزول شيئاً فشيئاً مع انتشار الديانة الجديدة (المسيحية) حتى فقدت المعابد الوثنية احترامها وقدسيتها بعد ما أصبح الدين المسيحي الدين الرسمي للبلاد. وكنتيجة لذلك أصبح أنصار الديانة الجديدة - الذين كانوا معتدلين ومتسامحين في بداية أمرهم - يضطهدون الوثنيين. وقد بلغت حملات التنكيل والاضطهاد ذروتها في عهد الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول (Theodosius I) (٣٧٨-٣٩٥م) عندما قام أسقف الإسكندرية ثيوفيلوس (٣٨٥ - ٤١٢م) - بعد أن استصدر أمراً من الإمبراطور - بهدم معبد السير ابيوم في عام ٣٩١م، ومن ثم تحويله إلى كنيسة.[١٣٦] والسؤال المهم الآن هو هل مكتبة السير ابيوم - وهي جزء من المعبد -

قد دمرت مع المعبد أم لا؟ وللاجابة على هذا نقول إن هناك بعض الغموض يكتنف هذه الحادثة، ولعل هذا هو السبيب في اختلاف المؤرخين حول مصير هذه المكتبة، فبعضهم يعتقد أن تدمير المعبد يعني أيضا نهاية المكتبة(١٣٧)، وآخرون يتبنون وجهة نظر مغـايرة تماما، ومن تلك الآراء على سبيل المثال، ما ذكره أحمد حسين في كتابه (مكتبة الإسكندرية في العالم القديم) استناداً على نوريسون Nourisson من أن المكتبة نقلت إلى رومـا أو القسـطنـطينية. (١٣٨) وهناك رواية ثالثة تشير إلى احتمال إحراقها على يد الإمبراطور الروماني جوفيان (Jovianus) (٣٦٣-٣٦٤م). (١٣٩) ويزعم سيدني جاكسون أن الكثـير من كتب المكتبـة ربما أمكن إنقاذها، إلا أنه يستدرك قائلاً ـ طبقاً لرواية أورسيوس (Orosius) إن المكتبة لم تكن موجودة في عام ٤١٦م. (١٤٠)

وسواء دمرت المكتبة مع المعبد، أو نقلت إلى القسطنطينية، أو أحرقها جوفيان، فالنتيجة واحدة، وهي أنه في عام ٣٩١م لم يعد للمكتبة وجود. (١٤١)

٨ ـ ١ . المسلمون وحريق مكتبة الإسكندرية: خلفية تاريخية

تناول موضوع نهاية هذه المكتبة الكثير من الكتاب والباحثين، لا لأنها أهم مكتبة في العالم القديم فحسب، بل ربما أيضا للظروف والملابسات التي أحاطت بتلك النهاية المؤسفة. ولقد تحدثنا بشكل مفصل حول مصير المكتبة بجزئيها الرئيس والفرعي، إلا أن هذا البحث سيظل غير مكتمل مالم يتطرق إلى أمر مهم يتعلق بهذه المكتبة، وهو موضوع التهمة التي وجهت إلى المسلمين والقائلة بأنهم أحرقوا هذه المكتبة عندما كان عمرو بن العاص والياً على مصر من قبل الخليفة عمر بن الخطـاب رضـي الله عنـه بنـاءً علـى أوامـر الأخيـر.

وبداية، هناك اختلاف بين المؤرخين فيمن أورد هذه التهمة أولا، فيرى مؤرخون أمثـال حسن إبـراهيم حسن في كتـابـه (تـاريخ الإسـلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي)(١٤٢) وأحمـد شلبي في كتـابـه (مـوسـوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية)(١٤٣) أن أول من نسب الحريق إلى عمرو بن العاص هو المؤرخ عبد اللطيف

البغدادي في كتابه (الإفادة والاعتبار). [١٤٤] ولا يرى هذا الرأي الفرد بتلر (Alfred Butler) في كتابه (فتح العرب لمصر) الذي يعتقد أن أول من أورد قصة الحريق هذه هو أبو الفرج الملطي المعروف بابن العبري. [١٤٥] ولعل أول من أورد قصة حريق المكتبة على نحـو أوفى هو القفطي في كتابه (تاريخ الحكماء) وهذا ما ذهب إليه محمد أحمد حسين، ومصطفى العبادي في كتابيهما (مكتبة الإسكندرية في العالم القديم)[١٤٦]، و (مكتبة الإسكندرية القديمة). [١٤٧]

ومنذ أورد أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (٥٦٨ـ٦٤٦هـ/١١٧٢ـ١٢٤٨م) تلك الرواية تداولها المؤرخون العرب مثل ابن العبـري وأبي الفـداء والمقريزي. [١٤٨] وعلى أية حال فحتى تلك المصادر التي أوردت قصة الحريق كان ذكرها لها عبارة عن إشارة عابرة. وعلى سبيل المثال رواية عبد اللطيف البغدادي (١١٦٠ـ١٢٣١م) وهو طبيب ومؤرخ عرف بسعة علمه ـ رغم أن روايته فيها يتعلق بالمكتبة غير دقيقة تماماً ـ قد أتت عرضاً وقد نص في تلك الرواية المثيرة للجدل على مايلي: «ورأيت أيضـاً حـول عمود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالهـا أنها كانت مسقـوفة والأعمدة تحمل السقف وعمود السواري عليه قبة هو حاملها، وأرى أنه الرواق الذي كان يدرس فيه أرسطو طاليس وشعيته من بعده، وأنه دار العلم التي بناها الإسكندر حين بنى مدينته، وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضي الله عنه». [١٤٩]

وقبل الرد على موضوع تهمة إحراق عمرو بن العاص للمكتبة لابد من التنبيه إلى أن هذه الإشارة العابرة للحريق في نص البغدادي قد تضمنت بعض المغالطات الكبيرة وهـــي:

أولا: أن أرسطو لم ير الإسكندرية قط لأنه توفي في عام ٣٢١ق.م. أثناء مراحل التأسيس الأولى، أما البناء نفسه فقد استغرق حوالي ٨٠ عاماً ـ كما أسلفنا ـ

ويبدو أن الأمر التبس على البغدادي فخلط بين مدرسة أرسطو المعروفة باللوقيوم (Lyceum) في أثينا وبين الموسيوم في الإسكندرية، وكلاهما ذو أروقة معمدة.[١٥٠]

ثانيا: أن الإسكندر الأكبر لم يبن داراً للعلم في الإسكندرية، بل إن بناء الإسكندرية نفسها لم يكن قد تقدم كثيراً عندما توفي الإسكندر في سنة ٣٢٣ق.م، ولكنه اكتمل في عهد بطلميوس الثاني.[١٥١] أما الموسيوم فقد أنشيء في فترة البطالمة.

وهكذا يتضح أن رواية عبد اللطيف التي استشهد بها بعض المؤرخين المسلمين والغربيين تفتقر في جوهرها إلى الصحة. ويعتقد أن أول وأوفى نص للقصة ورد في المصادر العربية هو نص القفطي في كتابة (تاريخ الحكماء) الذي ذكر فيه القصة عرضاً وذلك في معرض تعريفه بيحي النحوي.[١٥٢]

وتتلخص الرواية في أنه كان وقت الفتح رجل اكتسب شهرة طيبة عند المسلمين ويعرف بيحي النحوي (John Philoponus) وهو أسقف قبطي من الإسكندرية يعقوبي المذهب رجع عما يعتقده في التثليث، فاجتمع إليه الأساقفة بمصر في محاولة لثنيه فرفض فخلعوه من منزلته وعاش حتى الفتح لإسلامي وعرف عمر بمكانته وقربه، وتمضي القصة قائلة أن يحيى دخل على عمرو يوماً وقال له: «إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها. فأما مالك به انتفاع فلا أعارضك فيه ومالا انتفاع لك به فنحن أولى به. فقال له عمرو: وما الذي تحتاج إليه؟ قال: كتب الحكمة في خزائن الملوكية. فقال له عمر: لا يمكنني أن آمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر وعرفه بقول يحيى، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: « وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها مايوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها مايخالف كتاب الله فلا حاجة إليه، فتعهد بإعدامها، فشرع عمرو بن العاص في تفرقتها على حمامات الإسكندرية وإحراقها

في مواقـدهـا، فاستنفـدت في سـتـة أشهـر، فأسمـع ما جرى وأعجب!»[١٥٣] وتذكر بعض المصادر التاريخية أن عدد الحمامات في الإسكندرية في ذلك الوقت بلغ حوالي أربعة آلاف حمام.[١٥٤]

تلك هي رواية القفطي التي عول عليه الكثير من المؤرخين الذين أتوا من بعده. أما بالنسبـة للتهمـة ذاتها فقد تناولها الكثير من الدارسين من غربيين وغيرهم بين مؤيد ومعارض. ويميل كثير من الكتاب الغربيين بشكل عام إلى تصديقها وذلك لأسباب ـ لسنا الآن بصدد ذكرها ـ زاعمين أن هذا التوجه المتزمت يتفق وروح الإسلام من ناحية، ولكون راويها بداية أحد المسلمين من ناحية أخرى. ومن بين من تناول هذا الأمـر من مؤرخي المكتبـات الغـربيين الـذين يميلون إلى تصـديقهـا جونسـون وهـاريس.[١٥٦] وهـذا ما ذهـب إليـه أيضـا المؤرخ الإنجليزي المعـروف إدوارد إدواردز[١٥٦]. وعلى النقيض من هؤلاء هناك من درسها من الغربيين بعناية وتجرد ولم يصدقوها ومن بينهم المستشرق والمؤرخ البريطاني المشهور إدوارد جيبون (Edward Gibbon) في كتابه (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها).[١٥٧] ولعل أهم من درس هذه الرواية بتجرد عمق وتصدى لها المؤرخ البريطاني المعروف ألفرد بتلر (Alfred Butler) الذي نقدها في فصل كامل من كتابه (فتح العرب لمصر)، ولعل تلك الدراسة الجيدة من أبلغ الردود على من صدق تلك الرواية وخاصة من الغربيين[١٥٨]. كما أن بحث المستشرق المعروف الأستاذ كازانوفا الذي تلاه أمام أكاديمية الآثار والآداب في باريس في ٢٨ مارس ١٩٢٣م الـذي فند فيه هذه القصة هو الآخر من خير الردود وأتمها.[١٥٩] أما الموسوعة الدولية للمكتبات التي تصدرها جمعية المكتبات الأمريكية (ALA) فتشير إلى فاجعـة الحـريق الـذي أصاب حي البروكيوم ومعه المكتبة في عام ٤٧ق.م. خلال غزو يوليوس قيصر، كما تؤكد التدمير الذي حصل في نهاية القرن الـرابع الميلادي الناتج عن النزاع الطائفي بين المسيحيين أنفسهم من ناحية وبينهم والوثنيين من ناحية أخرى، وتخلص الموسوعة إلى القول بأنه لم يبق للمسلمين الفاتحين في منتصف القرن السابع من هذه المكتبة ما يدمروه.[١٦٠]

٩ ـ ١ مدى صحة التهمة

أولا: تمحورت قصة الحريق هذه حول شخصية يوحنا النحوي وهذا القس ـ كما يذكر الفرد بتلر ـ كان يقوم بالكتابة من سنة ٥٤٠م إن لم يكن قبل فترة الإمبراطور جستنيان (Justinian) في عام ٥٢٧م. وإذا صح ما ذهب إليه بتلر فمعنى ذلك أنه عند افتتاح المسلمين لمصر سنة ٦٤٢م فإن عمره عندئذ يصبح حوالي ١٢٠ سنة وهذا شيء يكاد يكون مستحيلاً، ولهذا السبب فلابد أنه توفي قبل ٣٠ أو ٤٠ سنة قبل الفتح الإسلامي لمصر، وهذا هو رأي الفرد بتلر[١٦١]، ولو صح هذا الاستنتاج فإن رواية الحريق بهذه تنهدم من أساسها.

ثانيا: أن المؤرخين الذين عاشوا قبل فترة الفتح الإسلامي لم يتطرقوا إلى ذكر مكتبة الإسكندرية ومنهم روفينوس (Rufinus) وافتينوس (Aphthonius) وأورسيوس (Orsius) وهؤلاء أشاروا إلى الصراع العنيف بين الوثنيين والمسيحيين وإلى هدم معبد السر ابيوم، إلا أنهم لم يضمنوا كتاباتهم شيئاً عن مكتبة الإسكندرية طيلة القرنين الخامس والسادس الميلاديين والتي لو كانت قائمة آنذاك لما أغفلوا ذكرها.[١٦٢]

ثالثاً: لم يرد ذكر المكتبة في كتابات المؤرخين الذين عاشوا تلك الفترة. فلم يُشر إليها على سبيل المثال في كتابات يوحنا النيقوسي، الذي كان يكتب في أواخر القرن السابع للميلاد، وذكر تفصيلات دقيقة عن الفتح الإسلامي لمصر، ولم يتطرق من قريب أو بعيد إلى حريق المكتبة.[١٦٣] بل إن المؤرخين حنا مسكوس (John Moschus) ، وسوفرونيوس (Sophronius) زارا مصر وتحدثا عن المكتبات الخاصة بالإسكندرية ولم يوردا ذكرا لمكتبة الاسكندرية مما يدل على عدم وجودها في ذلك الوقت.[١٦٤]

رابعاً: لم يذكر قصة الحريق هذه أئمة المؤرخين المسلمين كالطبري، وأبي المحاسن، والكندي، والسيوطي، والواقدي، والبلاذري، واليعقوبي، وابن الأثير، وابن خلدون، وابن عبـد الحكم، وإنما ظهرت بعدما يزيد على نصف قرن من وقـوعهـا المزعوم، أي في القرن الثالث عشر الميلادي عندما أتى البغدادي والقفطي وابن العبري، فلماذا الصمت الطويل طيلة خمسة قرون ونصف؟! هذا الأمر يلقي بظلال كثيفة من الشك على الرواية من أساسها.

خامساً: لابد أن قصة الحريق المزعومة قصد بها إما:

١ ـ مكتبـة الموسيـوم أو البركيوم وهي المكتبة الرئيسة التي أسست في حي الـبروكيوم، وهـذه احـترقت في عام ٤٧ق.م. وفي رواية أخـرى عام ٤٨ق.م. عندما أحرق يوليوس قيصر الأسطول المصري ومعه جزء من الحي المذكور بما فيه المكتبة ـ كما نوه إليه في حينه.

٢ ـ أو أنه قصد بها مكتبة السير ابيوم وهي المكتبة الفرعية التي أنشئت في معبد سيرابيس بعد خمسين سنة من قيام الأولى، وهذه أيضا قد أصابها الدمار لاحتراقهبا على يد الإمبراطور أوفيان، أو أنها نقلت إلى روما أو القسطنطينية، أو أنها انتهت بانتهاء معبد السير ابيوم في عام ٣٩١ق.م. في فترة الإمبراطور ثيودوسيوس، وكل هذه الروايات قد تم التنويه عنها في حينه. ولو سلمنا جدلاً أن بعضاً من كتب تلك المكتبة قد نجا من تلك الكـوارث والمحن فلابـد أنـه لحقها الدمار والضياع خلال فترة القرنين ونصف القرن التي سبقت دخول المسلمين لمصر.

سادساً: لو أن المكتبة موجودة إبان الفتح الإسلامي ـ كما ذكر حسن إبراهيم حسن ـ لكـان في الإمكان إنقاذها ـ بنقلها مثلاً ـ خلال الهدنة التي استمرت ١١ شهراً خاصة وأن الاتفاقية مع المسلمين تجيز لأهل البلاد المفتوحة نقل ما يريدون. [١٦٥]

سابعاً: القول بأن عمرو بن العاص فرق كتب المكتبة على حمامات الإسكندرية وعددها أربعة آلاف، قول مثير للسخرية ومرفوض من عدة نواحي:

١ ـ أن عمرو بن العاص من الرجال المشهود لهم بالدهاء والعبقرية، وإذا كان فعلاً قد عقد العزم على التخلص من تلك الكتب فلا يمكن أن تكون فكرة إحراقها دفعة واحدة غائبة عن ذهنه، ذلك أن فترة الستة أشهر التي حددتها الرواية كمدة لإحراق الكتب كفيلة بتسرب الكثير من الكتب، وبالتالي انتفاء الهدف الديني (المزعوم) لإحراقها إذا كان ثمة هدف.

٢ ـ أما إذا كان الهدف من تفريق الكتب على حمامات الإسكندرية الانتفاع منها كوقود لتلك الحمامات، فإن هذا السبب أوهى من سابقه، وغير منطقي أيضاً لأنه لو كان صحيحاً فلابد أن نتذكر أن أغلبية كتب المكتبة مكتوبة على الجلود ـ كما نوه إليه في حينه ـ وهذه المادة لا تصلح للوقود. ولن تجعلها أوامر الخليفة عمر تحترق ـ على حد تعبير بتلر[١٦٦].

ثامناً: إن تعاليم الدين الإسلامي تخالف الرواية من أساسها وتهدف إلى عدم التعرض لكتب أهل الكتاب وغيرها، لأنه يجوز أن ينتفع منها المسلمون.

تاسعاً: لعل أحد أسباب إلحاق تهمة إحراق مكتبة الإسكندرية بالمسلمين ذر الرماد في العيون وذلك لإبعاد الأنظار عما ارتكبه الصليبيون من جرائم حرق الكتب والمكتبات في شرق العالم الإسلامي وغربه على حد سواء. ففي الشرق ـ وبعد ست سنوات من الحصار ـ تمكن الصليبيون من دخول طرابلس (الشام) عنوة في عام ١٠٠٩م (حوالي ٥٠٣هـ) خلال الحملة الصليبية الأولى وقضوا ـ ضمن ما قضوا ـ على مكتبة بني عمار العامة التي تذكر بعض الروايات أن عدد كتبها يصل إلى ٣ ملايين مجلد.[١٦٧] وقد اعترف بهذا التدمير بعض المستشرقين والكتاب الغربيين أمثال جيبون، وتومسون، وشوشري.[١٦٨]

أمـا صليبيو الأنـدلس فيبـدو أنهم يضمـرون كراهية متـزايدة للكتب الإسلامية بالذات، ومرد ذلك وصولهم إلى قناعة مفادها أنه من أجل اجتثاث جذور الإسلام والمسلمين من بلاد الأندلس فإنه لابد من القضاء نهائياً على زادهم الروحي والثقافي المتمثل في القرآن وبقية تراثه المكتوب مما جعل الساسة ورجال الدين يحرقون الكتب في الساحات العامة نهاراً جهاراً في مدن الأندلس كغرناطة وأشبيلية وغيرهما. وكمثال على ذلك ما قام به الكردينال كسيمينس عندما أمر بتجميع الكتب العربية ومن ثم إحراقها في ميدان باب الرحلة (Bib Rambla) في مدينة غرناطة في عام ١٥١١م. (١٦٩)

وأخيراً يجب التنويه إلى أن المؤرخ جرجي زيدان في كتابه (تاريخ مصر الحديث) قد عالج هذه القضية ووصل إلى قناعة مفادها أن المسلمين لا دور لهم في إحراق مكتبة الإسكندرية. يقول زيدان بالحرف: «.. وربما كان الأقرب إلى الصواب أن هذه المكتبة ومكتبات أخرى كانت في الإسكندرية قبلها ذهبتا فريسة النار وأيدي الأشرار على عهد البطالسة ومن جاء بعدهم من الروم أثناء الحروب الأهلية، ولم يبق منها شيء إلى الفتوح الإسلامية والله أعلم». (١٧٠) إلا أنه تراجع فيما بعد عن تلك الآراء وأيد الفكرة المضادة القائلة بأن عمرو بن العاص أحرق المكتبة بناءً على أمر عمر بن الخطاب وذلك في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) بحجة أنه عرض له بمطالعاته المتواصلة في تاريخ الإسلام والتمدن الإسلامي ترجيح هذا الرأي لستة أسباب ذكرها زاعماً أن في هذا إجلاء للحقيقة. (١٧١)

أما تلكم الأسباب فهي:

أولا: زعم أن لدى العرب رغبة في صدر الإسلام في محو كل كتاب غير القرآن.

ثانيا: يرجح أن رواية الحريق قد نقلت أساساً عن القفطي وهو مؤرخ مسلم موثوق راجح في عقله غزير في علمه.

ثالثا: ورود بعض الأخبار عن إحراق المسلمين لمكتبات في فارس وغيرها.

رابعا: شيوع إحراق المكتبات في ذلك الوقت فكان أهل كل شيعة أو ملة يحرقون كتب غيرها تشفياً من عدو أو نكاية فيه.

خامسا: أن أصحاب الأديان في تلك العصور كانوا يعدون هدم المعابد القديمة وإحراق كتب أصحابها من قبيل السعي في تأييد الأديان الجديدة.

سادسا: أن في التاريخ الإسلامي ذكراً لبعض الأئمة الذين أحرقوا كتبهم من تلقاء أنفسهم.

وهكذا يخلص قائلاً: (فيرجح بناء على ما تقدم أن العرب أحرقوا ما عثروا عليه من كتب العلم القديمة في الصدر الأول تأييداً للإسلام، فلما تأيد سلطانهم واشتغلوا بالعلوم عوضوا على العالم أضعاف ما أحرقوه).

ويرفض على شلش تلك الأسباب لأنها لا تتصل بصلب الموضوع من حيث الظروف التاريخية الخاصة بمكتبة الإسكندرية وتطوراتها، ورواية القفطي والملطي، إلى جانب أن الأسباب المشار إليها تعميمية وتبريرية من ناحية، وظنية من ناحية أخرى.[١٧٢] ويعتقد الكاتب أن تعاليم الإسلام تخالف هذه الرواية وتقضي بعدم التعرض لكتب أهل الكتاب وكذا الكتب النافعة لأنه يجوز أن ينتفع بها المسلمون. وأما الاعتقاد بأن حرق الكتب تقليد لدى المسلمين فهذا ليس صحيحاً جملة وتفصيلاً وإلا لما سمحوا لأهل الذمة بالمحافظة على كتبهم.

وفي النهاية يمكن أن نتعرض بإيجاز إلى رأي كاتب آخر هو عباس محمود العقاد، وهو رأي في ـ نظر الباحث ـ مهم لعدة أسباب منها:

١ ـ أن فيه راداً قوياً على التهمة، وهو بهذا يشارك المستشرقين ولا يقل رأيه أهمية عن آراء المنصفين منهم ممن تناولوا هذه القضية.

٢ ـ أن العقاد خلص إلى هذا الاستنتاج بعد تحليل علمي دقيق لشخصية عمر ولثقافته على نحو خاص.

٣ ـ أورد بعض العوامل المهمة التي قد تكون وراء الأسباب التي أدت إلى ظهور قصة الحريق بعد حوالي ستة قرون من وقوعها. ولقد ورد رأي العقاد هذا في (عبقرية عمر) وتحديداً في موضوع ثقافة عمر وموقفه من الثقافات في زمنه.[١٧٣]

يبدأ الكاتب باستعراض آراء نخبة ممتازة من المؤرخين الأوربيين الذين لا يمكن أن يتهموا بالتشيع للمسلمين، كما أن هؤلاء جميعاً من الثقات ومنهم إدوارد جيبون، وألفرد بتلر، وكازانوفا جميعهم أنكروا قصة إحراق المكتبة وجميعهم أوردوا الدلائل القاطعة لدحضها. ثم يستعرض أسباب ظهور القصة في القرن السادس بالذات، ويرى أن تلفيق قصة من هذا النوع يستلزم عناصر شتى لم تجتمع كلها في وقت واحد قبل القرن السادس الهجري. ومن تلك العناصر أن يكون الملفق علياً بالأقوال والأحوال التي أثرت عن عمر بن الخطاب، ولم تكن تلك الأقوال والأحوال معلومة مستفيضة الخبر بين المسلمين أنفسهم في ذلك الوقت ناهيك عن المسيحيين أو الإسرائيليين. وإنما علمت تلك بشكل مستفيض بعد تدوين السير وجمع المتفرقات.[١٧٤]

وثمة شيء آخر من مستلزمات التلفيق وهو أن يكون الملفق عارفاً بما في بهذه التهمة من المعابة شاعراً بما فيها من الاعتساف والغرابة، ولم يكن هذا مفهوماً أيام فتح الإسكندرية بين خصوم الإسلام. لأن هؤلاء الأعداء ـ حسب رأي العقاد ـ قد تعودوا إحراق الكتب وهدم التماثيل واعتبروا الوثنية وبقاياها رجساً من عمل الشيطان يستحوذ نار الدنيا قبل جحيم الآخرة. وما من عارف بالكتب بينهم إلا وسمع بتدمير وإحراق القياصرة المسيحيين ومنهم (ثيودوسيوس) للهياكل التي احتوت على كتب كثيرة من بقايا المكتبة التي عليها الخلاف. وقد يكون أحد مستلزمات القصة أن يكون العصر عصر حزازة بين الإسلام وخصومه، كما كان عصر الحروب الصليبية وما قبله بقليل.[١٧٥] هذه الأسباب وغيرها أدت إلى ظهور القصة في هذا الوقت بالذات وهي التي ربما كانت وراء الصمت المطبق الذي استمر مدة تربو على نصف القرن حتى جاء القفطي والبغدادي وأبو الفرج الملطي. ولهذا يجزم العقاد أن القصة ماكان لها أن تظهر قبل

القرن السادس الهجري وإلا فإنها لن تلقى من الرواج والانتشار ما لاقته يوم ظهرت. ويخلص العقاد إلى تكذيب قصة الحرق هذه قائلا: «يحق لنا أن نعتقد أن كذب الحكاية أرجح من صدقها، وأنها موضوعة في القرن الذي كتبت فيه ولم تتصل بالأزمنة السابقة لها بسند صحيح. وربما كانت مدسوسة على الرواة المتأخرين للتشهير بالخليفة المسلم وتسجيل التعصب الذميم عليه وعلى الإسلام». [١٧٦]

قائمة المراجع

(١) لطفي عبد الوهاب يحيى، دراسات في العصر الهلنستي.ـ (بيروت: دار النهضة العربية. ١٩٧٨م). ص ٦٨.

(٢) أمين الخولي وآخرون، تاريخ الحضارة المصرية: العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي.ـ (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ المؤسسة العامة للتأليف والطباعة والنشر، د.ت)، مج ٢، ص ٧.

(٣) الخولي، مصدر سابق، ص ١٨.

(٤) محمد صبحي عبد الحكيم، مدينة الإسكندرية .ـ (القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٥٨م) ص ٩١.

(٥) عبد الحكيم، مصدر سابق، ص ٩٩.

(٦) محمد أحمد حسين، مكتبة الإسكندرية في العالم القديم.ـ ط ١ (القاهرة مطبعة الاعتماد، ١٩٤٣م)، ص٧.

(٧) إبراهيم نصحي، تاريخ مصر في عهد البطالمة، ط ٣ (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٦م)، ج ٢، ص ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٨) نصحي، مصدر سابق، ص ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٩) نصحي، مصدر سابق، ص ص ٢٩٩.

(١٠) نصحي، مصدر سابق، ص ٣٠١.

(١١) حسين، مصدر سابق، ص ص ٣-٤.

(١٢) يحيى، مصدر سابق، ص ٣٢٨.

(١٣) حسين، مصدر سابق، ص ١٩.

(١٤) *Encyclopedia of Library and Information Science/* (New York: Marcell Dekker, Inc...-.1986) p.402

(١٥) ALA World Encyclopedia of Library and Information Service (Chicago: American Library Association-. 1980), p.32.

وأنظر أيضاً:

James G. Olle: *Library History (London: Clive Bingley, 1971), p. 21.*

Elmer D. Johnson and Michael H. Harris, History of Libraries in Western World. 3rd ed. (Metuchen: N.J., The Scarecrow Press, 1976), pp. 46-47.

(١٦) مصطفى العبادي: مكتبة الإسكندرية القديمة.- (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٧م)ص ١٠.

(١٧) Encyclopedia of Library and Information Science.- Vol., 7, p.402.

(١٨) *Encyclopedia of Librarianship.* -3rd. ed., (London: Bows and Bows, 1968), p. 253.

(١٩) هارولد أدريس بل، الهيلينية في مصر.- ترجمة زكي علي.- (القاهرة: دار المعارف، د.ت)، ص ٧٧.

(٢٠) الخولي وآخرون، مصدر سابق، ص ٨٢.

(٢١) حسين، مصدر سابق، ص ٢١.

(٢٢) Johnson and Harris, p. 46.

(٢٣) نقلاً عن العبادى، ص ١١.

(٢٤) الخولي وآخرون، مصدر سابق، ص ٨٢.

(٢٥) Raymond Irwin: *The Origins of the English Library.- (Ewst part, connecticut: Greenwood Press, 1981)p.30.*

(٢٦) فؤاد صروف، مكتبة الإسكندرية ومدرستها وطرف من آثار بعض علمائها في عهد البطالسة.- المقتطف، مجلد ٨٦، جزء ١، يناير ١٩٣٥م، ص ١٢.

(٢٧) حسين، مصدر سابق، ص ٢٦.

(٢٨) ألفرد هيسيل، تاريخ المكتبات، ترجمة شعبان خليفة.- (الرياض: دار المريخ، ١٩٨٠م)، ص ١٣.

(٢٩) حسين، مصدر السابق، ص ٦٠.

(٣٠) محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة.- (بيروت: دار نهضة لبنان للطبع والنشر، ١٩٨٠م). م٢. ص ١٦٤٨.

(٣١) هارولد ادريس بل، مصر من الإسكندرية حتى الفتح العربي - دراسة في انتشار الحضارة الهيلينية واضمحلالها.- ترجمة عبد اللطيف أحمد علي، ط ٣ (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٣م)، ص ٧٣.

(٣٢) يحيى، مصدر سابق، ١٨٩.

(٣٣) يحيى، مصدر سابق، ١٨٩.

(٣٤) Johnson and Harris . p. 47. وأنظر أيضاً: حسين، ص ٢٨ .

(٣٥) حسين، مصدر سابق، ص ٢٠ .

(٣٦) *The Encyclopedia America.*- Intern. ed. (New York: American Corporation, 1955), Vol.9, p. 543.

يحيى، مصدر سابق، ١٨٩ .

(٣٧) *ALA World Encyclopedia of Library and Information Service*, p. 32.

The Encyclopedia America.- Intern. ed. (New York: American Corporation, 1955), Vol.9, p. 543.

(٣٨) عبد الستار الحلوجي، لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات .- (القاهرة: جمعية المكتبات المدرسية، ١٩٧١م)، ص ١٦ .

(٣٩) حسين، مصدر سابق، ص ١٦ .

(٤٠) حسين، مصدر سابق، ص ١٠ وأنظر أيضاً:

J. W. Clark: *The Care of Books* (London: Variorum Reprint, 1975), p.6.

والحلوجي، ص ١٦ .

(٤١) Edward Alexandar Parsons: *The Alexandrian Library:* Glory of Hellenic World, Its Rise, Antiquities and Destruction.- (Amesterdam: The Alsevir Press, 1952, p. 89.

(٤٢) Sidney L. Jackson *Libraries and Librarianship in the West*-A Brief History.- (New York: McGraw-Hill Book Company, 1974), pp.9-10.

وأنظر أيضا:

Johoson and Harris, p. 47; ALA World Encyclopedia of Library and Information Service, p.32.

(٤٣) *Jackson*, p. 9.

(٤٤) *Johnson and Harris*, p. 47;

وأنظر أيضــاً: هيسيل، ص ١٣ ؛ حسين، ص ١٣ .

(٤٥) *Encyclopedia of Librarianship*, p. 253; Johnson and Harris, p. 47.

وأنظر أيضا: حسين ، ص ١٣ .

(٤٧) الحلوجي ، مصدر سابق، ص ١٧ ؛ حسين، مصدر سابق، ص ١٧ .

(٤٨) *Encyclopedia of Library and Information Science*, vol. 1, p. 402.

(٥٠) *Irwin*, p. 29.

(٥١) *Johnson and Harris, p.48* وأنظر أيضا: *Jackson, p.14.*

(٥٢) العبادي، مصدر سابق ص ١٨.

(٥٣) هيسيل، مصدر سابق، ص ١٤.

(٥٤) Jackson, p. 15.

(٥٥) Encyclopedia of Library and Information Science, vol. 1.p.403.

(٥٦) Irwin, p. 35.

وأنظر أيضا: *Encyclopedia of Library and Information Science*, vol. 1, p. 403.

(٥٧) *Johnson and Harris*, pp.47-48.

(٥٨) حسين: مصدر سابق، ص ص ٣٣-٣٤.

(٥٩) Edward Edwards. *Libraries and Founders of Libraries*. - (New York: Burt Franklin, 1969). p.6.

(٦٠) حسين، مصدر سابق، ص ٩.

(٦١) ALA World Encyclopedia of Library and Information Services, p. 32.

(٦٢) عبادة سيرابيس (Serapis) عبادة جديدة ابتدعها بطلميوس الأول لتكون عبادة رسمية للدولة البطلمية ولتصبح حلقة الوصل بين رعاياه من المصريين واليونانيين على حد سواء، وتبعاً لذلك أقيم معبد كبير لآلهتها في الحي الوطني من الإسكندرية، وأقيم تمثال له في المعبد. (أنظر نصحي، ص ١٩٤).

(٦٣) Encyclopedia of Library and Information Science.- vol.I p.402.

(٦٤) Edwards. pp. 6-7.

(٦٥) Edwards, pp. 6-7.

(٦٦) Jonson and Harris, p.47.

(٦٧) *Encyclopedia of Library and Information Science*, - vol. 1, p.402

وأنظر أيضا: العبادي، ص ١١؛ والحلوجي، ص ١٦.

(٦٨) Olle, p.21.

(٦٩) العبادي، مصدر سابق، ص ١١.

(٧٠) Iirwin. p.30.

(٧١) Jackson. P. 10.

(٧٢) صروف، ص ٩.

(٧٣) خمسة عشر تالنتا تساوي ستة لآف دراخمة، وتساوي حوالي ٣,٠٠٠ جنيها استرلينيا، أنظر أيضا Edwards. p.6.

(٧٤) Edwards, p.6.

(٧٥) سفند دال، تاريخ الكتاب من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، ترجمة محمد صلاح الدين حلمي. ـ (القاهرة: المؤسسة القومية للنشر والتوزيع ١٩٥٨م)، ص ١٨.

(٧٦) Johnson and Harris, p.47.

(٧٧) العبادي، مصدر سابق، ص ص ١٥-١٦.

(٧٨) العبادي، مصدر سابق، ص ١٦.

(٧٩) حسين، مصدر سابق، ص ١٤.

(٨٠) Edwards, p.5.

(٨١) Johnson and Harris, p.47.

(٨٢) حسين، مصدر سابق، ص ص ١٤-١٥.

(٨٣) حسين مصدر سابق، ص ٢١.

(٨٤) David Diringer, *The Book Before Printing-Ancient, Medieval and Oriental (New Publication Inc., 1953), p.270. York: Dover.*

(٨٥) Edwards, pp. 6-7.

(٨٦) Johnson and Harris, p. 49.

(٨٧) Jackson, p. 13.

(٨٨) حسين، ص ٢٧؛ وأنظر أيضاً: العبادي، ص ١٢.

(٨٩) الحلوجي، مصدر سابق، ص ١٩.

(٩٠) العبادي، مصدر سابق، ص ١٧.

(٩١) ALA World Encyclopedia of Library and Information Service, p.32.

(٩٢) دال، مصدر سابق، ص ١٥.

(٩٣) لعل مجلد البردي أو اللفافة الواحدة (Roll) تقارب من ناحية حجم المعلومات المشتملة عليها ما نسميه في الوقت الحاضر بالكتيب أو الكراس الذي تعرفه منظمة اليونسكو بأنه مطبوع يتراوح عدد صفحاته بين ٥ و ٤٨ عدا صفحتي الغلاف.

(٩٤) فرانسيس روجرز، قصة الكتابة والطباعة ـ من الصخرة المنقوشة إلى الصفحة المطبوعة. ـ ترجمة أحمد حسين الصاوي (القاهرة: مؤسسة فرانكلين، ١٩٦٩م)، ص ص ٤٧-٤٩.

(٩٥) بل، الهيلينية في مصر، ص ٢١.

(٩٦) العبادي، مصدر سابق، ص ٥٢.

(٩٧) الحلوجي، مصدر سابق، ص ص ٩٦-٩٧.

(٩٨) Johnson and Harris, p. 43.

(٩٩) محمد ماهر حمادة، المكتبات في العالم - تاريخها وتطورها حتى مطلع القرن العشرين.- (الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر، ١٩٨١م)، ص ص ٦٢-٦٤.

(١٠٠) Johnson and Harris, p.14.

(١٠١) Edwards, p. 14.

(١٠٢) Olle, p.21.

(١٠٣) Johnson and Harris, p.44.

(١٠٤) Jackson, pp. 17-18.

(١٠٥) Johnson and Harris, pp. 51-52.

(١٠٦) حسين، مصدر سابق، ص ١٨.

(١٠٧) Encyclopedia of Library and Information Science. - vol. 2.p. 400.

(١٠٨) Olle, p. 21.

(١٠٩) حسين، مصدر سابق، ص ١٨.

(١١٠) دال، مصدر سابق، ص ١٩.

(١١١) Johnson and Harris, p. 52.

(١١٢) حسين، مصدر سابق، ص ص ٤١-٤٢.

(١١٣) حسين، مصدر سابق، ص ص ٤١-٤٢.

(١١٤) Johnson and Harris, p.52.

(١١٥) Johnson and Harris, p.52.

(١١٦) Ernest A. Savage, The Story of Libraries and Book Collecting. - (New York: Burt Franklin, 1969), p.14.

(١١٧) Irwin. p. 35. وأنظر أيضا: Jackson. p.14.

(١١٨) Edwards, p.7.

(١١٩) Johnson and Harris p.52.

(١٢٠) *Edwards, p.7.*

(١٢١) Diringer, p. 270.

(١٢٢) حسين، مصدر سابق، ص ٥١.

(١٢٣) دال، مصدر سابق، ص ١٨

(١٢٤) نقلاً عن العبادي، مصدر سابق، ص ٣٠.

(١٢٥) Encyclopedia of Library and Information Science. vol. 1, p.403.

(١٢٦) حسين، مصدر سابق، ص ٤٥؛ أما المصدر الذي استقى منه معلوماته هذه فهو:

J. Staquer. "Ceasar a Alexandrie. L'Incendie de La Bibliotheque" (Extrait de La revue "Nova et vetera" April-Juin, 1928), p. 168.

(١٢٧) العبادي، مصدر سابق، ص ٢٧.

(١٢٨) Edwards, p. 7.

(١٢٩) Johnson and Harris, p.50.

(١٣٠) Jackson, p. 16.

(١٣١) The Encyclopedia Americana. - vol. 1,p.544.

(١٣٢) العبادي، مصدر سابق، ص ٣٥.

(١٣٣) Johnson and Harris, p.50.

(١٣٤) العبادي، مصدر سابق، ص ٣٦.

(١٣٥) العبادي، مصدر سابق، ص ٣٨.

(١٣٦) العبادي، مصدر سابق، ص ص ٣٨-٣٩.

(١٣٧) Irvin, p. 19. وانظر أيضا: دال، ص ١٨؛ Olle p. 21

(١٣٨) حسين، مصدر سابق، ص ٦٥؛ وأنظر أيضاً: Jackson, p.17.

(١٣٩) حسين، مصدر سابق، ص ٦٥.

(١٤٠) Jackson, p.17.

(١٤١) Irwin, pp. 35-56 وانظر أيضاً: الحلوجي، ص ٢٤.

(١٤٢) حسن إبراهيم حسن، تارخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. - ط ٧ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤م)، م١، ص ٢٤٢.

(١٤٣) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية. - ط ٧ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٦م)، م٥، ص ص ٤٢-٤٦.

(١٤٤) عبد اللطيف البغدادي، موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن يوسف بن محمد بن علي، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر. - (القاهرة: مطبعة المجلة الجديدة، ١٩٢٥م) ص ص ٤١-٤٢.

(١٤٥) هو جريجوريوس بن هارون أبو الفرج الملطي، أرمني نصراني سمى بابن العبري لأن والده كان طبيباً يهودياً قبل أن يتحول إلى المسيحية. - وهو من مؤرخي القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي.

(١٤٦) حسين، مصدر سابق، ص ٦٩.

(١٤٧) العبادي، مصدر سابق، ص ٤٨.

(١٤٨) يذكر مصطفى العبادي في كتابه المشار إليه سابقاً (ص٥٠) أنه كان يظن أن ابن العبري أقدم مصدر لقصة الحريق وتحميل العرب هذه المسؤولية، وساعد نسبة اليهودي وتحوله للمسيحية في تعزيز هذا الشعور، إلا أن ورود القصة على نحو أوفى نص أكثر قدماً ـ يقصد ما أورده القفطي في تاريخ الحكماء ـ قد أزال عن ابن العبري هذه المسؤولية.

(١٤٩) البغدادي، مصدر سابق، ص ص ٤١-٤٢.

(١٥٠) العبادي، مصدر سابق، ص ٤٧.

(١٥١) عبد الحكيم، مصدر سابق، ص ٩٨.

(١٥٢) العبادي، مصدر سابق، ص ٤٨.

(١٥٣) العبادي، مصدر سابق، ص ٤٩.

(١٥٤) حسن، مصدر سابق، ص ص ٢٤٤-٢٤٥.

(١٥٥) Johnson and Harris, p. 50

(١٥٦) Edwards, p. 8.

(١٥٧) Edward Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire (London: Dent, 1969). vol. 5, pp. 343-350.

(١٥٨) Alfred J. Butler, The Arab Conquest of Egypt and the last thirty Years of the Roman Dominion.- p.M. Fraser (ed). 2nd ed. (Oxford: The Clarendon Press, 1978). pp. 401-426.

(١٥٩) صروف، مصدر سابق، ص ١٠.

(١٦٠) World Enclopedia of Library and Information Science.- P. 32.

(١٦١) *Bulter, pp. 405-406.*

(١٦٢) حسين، مصدر سابق، ص ٧٣.

(١٦٣) حسين، مصدر سابق، ص ٧٢.

(١٦٤) حسين، مصدر سابق، ص ٧٢.

(١٦٥) حسين، مصدر سابق، ص ٢٤٦.

(١٦٦) Butler, pp. 404-405.

(١٦٧) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي .- (د.م. د.ن.، د.ت)، ج٣، ص ٥٠.

(١٦٨) حمادة، مصدر سابق، ص ص ١٣٤-١٣٥.

(١٦٩) محمد ماهر حمادة، «الكتب والمكتبات في الأندلس»، مجلة كلية العلوم الاجتماعية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .ـ ع٦، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ص ٣٦٠-٣٦١.

(١٧٠) جرجي زيدان ، تاريخ مصر الحديث .- (مصر : مطبعة المقتطف ، ١٣٠٦هـ)، ج١، ص ١١.
(١٧١) زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي .-ص ص ٤٤-٥١.
(١٧٢) علي شلش، «دراسات تاريخية: هل أحرق العرب مكتبة الإسكندرية»؟ جريدة الشرق الأوسط.- ع ٣٥٥٢، ٩ أغسطس ١٩٨٨م، ص ١٣.
(١٧٣) عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة - العبقريات الإسلامية .- ط١ (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤م).- م١، ص ص ٥٨٤-٥٩٢.
(١٧٤) العقاد، ص ص ٥٨٩-٥٩٠.
(١٧٥) العقاد، ص ص ٥٩٠.
(١٧٦) العقاد، ص ص ٥٨٩.

الفصل الثاني

مكتبة برجامـــوم

١ ـ ٢ . مدخـــل

٢ ـ ٢ . مقدمة

١ ـ ٢ ـ ٢ . مشكلة الدراسة

٢ ـ ٢ ـ ٢ . الدراسات السابقة

٣ ـ ٢ ـ ٢ . أهمية الدراسة وأهدافها

٤ ـ ٢ ـ ٢ . أسئلة الدراسة

٥ ـ ٢ ـ ٢ . مجال الدراسة وحدودها

٣ ـ ٢ . مملكة برجاموم

١ ـ ٢ ـ ٣ . برجاموم: المملكة والمدينة

٢ ـ ٣ ـ٢ . مكانة برجاموم

٣ ـ ٣ ـ ٢ . مصير مملكة برجاموم

٤ ـ ٢ . مكتبة برجامـــوم.

١ ـ ٤ ـ ٢ . أهميتها وموقعها

٢ ـ ٤ ـ ٢ . مؤسسهـــا

٣ ـ ٤ ـ ٢ . طرق التزويد وعدد المقتنيات

٤ ـ ٤ ـ ٢ . تنظيم المجموعات: الفهرسة والتصنيف

٥ ـ ٤ ـ ٢ . حجم المقتنيـــات

٦ ـ ٤ ـ ٢ . طبيعة المقتنيات

٧ ـ ٤ ـ ٢ . المكتبة وعلماء برجاموم

٨ ـ ٤ ـ ٢ . برجاموم وصناعة الرق

٩ ـ ٤ ـ ٢ . مكتبة برجاموم والمكتبات الأخرى

١٠ـ٤ ـ ٢ . نهاية مكتبة برجاموم

١١ ـ ٤ ـ ٢ . الخاتمة والاقتراحات

الفصل الثاني
مكتبة برجاموم

١ ـ ١ مدخـــل

هذا الفصل الذي هو في واقع الأمر كان دراسة مستقلة حول مكتبة برجاموم، يحاول في البداية إلقاء الضوء على مملكة برجاموم التي نشأت في أحضانها هذه المكتبة المهمة وذلك من حيث؛ الموقع، والتأسيس، والأهمية الثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية في العالم الهيلينستي.

بعد ذلك تركز الدراسة على المكتبة من خلال عدة محاور تشمل؛ نشأتها ومنشآتها، ومقتنياتهـا، وتنـظيمها موضحة جهود علمائها والإسهام الحيوي الذي قامت به هذه المملكة في صناعة الرق كوسيط للكتابة بديلاً عن البرديات. ثم تختتم بخاتمة تستعرض فيها أهم النتائج.

وأخيراً يذيل الفصل باقتراح موضوعات محددة من شأن دراستها الإسهام في سد ثغرات الأدب العربي المكتوب حول هذا الموضوع.

٢ ـ ٢. مقدمـــة

١ ـ ٢ ـ ٢. مشكلة الدراســـة

لم تحظ مكتبة برجاموم ـ على الرغم من شهرتها وأهميتها ـ بعناية كبيرة من لدن من أرخوا للمكتبات مقارنة بما كتب حول منافستها مكتبة الإسكندرية. وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة لبعض اللغات كالإنجليزية مثلاً، فإن هذا يصدق تماماً علـى ما كتب حـول هـذا الموضـوع باللغـة العربية.

٢ - ٢ - ٢ . الدراسات السابقة .

ليس من المبالغة القول إن الباحث خلال تقصيه أدبيات هذا الموضوع لم يعثر على كتاب واحد باللغة العربية حول مكتبة برجاموم، لا بل إنه لم يجد دراسة علمية واحدة في أية دورية عربية تناولت الموضوع . ولهذا السبب اعتمد الباحث على الأدب المكتوب باللغة الإنجليزية . أما طبيعة المراجع التي تم الرجوع إليها فقد تراوحت تغطيتها بين المتوسطة والسريعة واللمحات المتفرقة هنا وهناك .

تأتي في مقدمة المراجع التي وجدها الباحث مفيدة، الكتب التالية :

١ - **Alexandrian Library: Glory of The Hellenic World, Its Rise, Antiquities and Destructions**

«مكتبـة الإسكنـدرية : مفخرة العالم الهيلينستي» الذي ألفه إدوارد الكسندر بارسونز (أنظر حاشية رقم ٦) . ومع أن الكتاب خُصِّصَ أساساً لمكتبة الإسكندرية القديمة - كما هو واضـح من عنوانه - إلا أن المؤلف أفرد الفصل الثالث (ص ١٩-٣١) لمكتبة برجاموم . ورغم أن هذا الفصل من أقصر فصول الكتاب، إلا أن الباحث وجده - على قصره - من أفضل ما اطلع عليه من أدبيات حول هذا الموضوع .

٢ - The Care of Books (العنـــاية بالكتب) هو عبـارة عن مقـالات في تطور المكتبات منذ أقدم الأزمان حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي . ألف هذا الكتاب جون ويلز كلارك (حاشية رقم ٤) . تكمن أهمية هذا الكتاب لهذه الدراسة في أنه ركز على موقـع مكتبـة برجـامـوم ورسم مخططـاً لها والأماكن المحيطة بها، متسفيداً مـن المكتشفات الأثرية التي توصل إليها متحف برلين في ألمانيا خلال تنقيبه فـي هـذا الموقـع بين سنتي ١٨٧٨-١٨٨٦م .

٣ - History of Libraries in Western World «تاريخ المكتبات في العالم الغربي» لمؤلفيه المرجونسون، ومايكل هاريس (حاشية رقم ٩) . يُعد هذا الكتاب من أفضل

الكتب المرجعية في تاريخ المكتبات في الغرب. إلا أن تناوله لمكتبة برجاموم كان محدوداً جداً إذ لم يتجاوز الصفحتين طولاً.

٤- بالإضـافة إلى ذلك هناك عدد كبير من الكتب التي تناولت هذا الموضوع بشكل مختصر جداً. وهناك بعض الكتب تناولت موضوعات محددة لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بموضوع هذه الدراسة، مثل اكتشاف الرَّق كوسيط للكتابة، والعلاقة بين الرَّق والبردي، والعلاقة بين مكتبة الإسكندرية وبرجاموم، وغير ذلك.

٥ ـ تنـاولت الموسوعات العامة والمتخصصة والمعاجم والكتب المرجعية الأخرى مكَتبة برجـامـوم، وكان هدف هذا التناول ـ كما هو هدف هذه الأدوات ـ تزويد القاريء العادي بفكرة عامة عن هذه المكتبة.

وقـد استخـدم الباحث جميع تلك الكتب المشار إليها، بالإضافة إلى العديد من المراجع، أُشير إليها في المكان المناسب من متن هذه الدراسة.

٣ ـ ٢ ـ ٢ . أهمية الدراسة وأهدافها

- تنبـع أهمية هذه الـدراسـة من أهمية هذه المكتبـة العـريقة باعتبارها أهم مكتبة هيلينستية بعد مكتبة الإسكندرية القديمة.
- تكمن أهميتها أيضا في أنها ـ حسب علم الباحث ـ أول دراسة عليمة موثقة كتبت بالعربية حول هذه المكتبة.
- ترمي هذه الـدراسـة إلى الإسهام في إيجاد أدب عربي مكتوب وموثق حول هذا الموضوع، يستفيد منه الباحثون وطلاب الجامعات العربية، خاصة أن الباحث لم يعثر على كتاب واحد؛ لا بل مقالة علمية واحدة كتبت حول هذا الموضوع.
- وهدف آخـر تسعى هـذه الدراسة لتحقيقه، وهو حفز همم الدارسين والباحثين من خلال تركيز اهتمامهم على هذا الموضوع البكر، علـه يجـد مايستحقه مـن الاهتمـام والدراسـة والتمحيص.

٤ ـ ٢ ـ ٢ . أسئلة الدراسة

- ماهي أهمية مكتبة ومملكة برجاموم؟
- من أسس تلك المملكة؟
- ما علاقة برجاموم بصناعة الرَّق؟
- مامكانة مكتبة برجاموم في هذه المملكة؟
- من هو مؤسس المكتبة ؟
- كيف كان يتم تزويدها بالمقتنيات؟
- كيف كانت تنظم مجموعاتها؟
- ما حجم تلك المجموعات؟
- هل مقتنياتها من البرديات أو الرُّقوق؟
- من هو أبرز علماء برجاموم وخاصة أولئك الذين لهم علاقة بالمكتبة؟
- ماهي العلاقة بين مكتبة برجاموم والمكتبات السابقة واللاحقة لها؟

٥ ـ ٢ ـ ٢ . مجال دراسة وحدودها

تتناول هذه الدراسة مكتبة برجاموم كإحدى المكتبات الهيلينستية الكبيرة ـ ودون إسهاب مطول ـ المحاور التالية:

أولا: برجاموم (برغامة): المملكة والمدينة من حيث:

- الموقع، وأهمية برجاموم الثقافية والعلمية ، والاقتصادية والاجتماعية في العالم الهيلينستي.

ثانيا: مكتبة برجاموم من خلال التركيز على:

- أهميتها.
- إنشائها ومنشآتها.
- مجموعاتها.
- تنظيمها.

- علمائها.

ثالثا: برجاموم ودورها في صناعة الرق Parchment (Vellum).

رابعاً: التأثر والتأثير، أو العلاقات مع أهم المكتبات السابقة واللاحقة.

٢ . ٣ ـ مملكة برجاموم:

٢ . ٣ ـ ١ ـ برجاموم: المملكة والمدينة

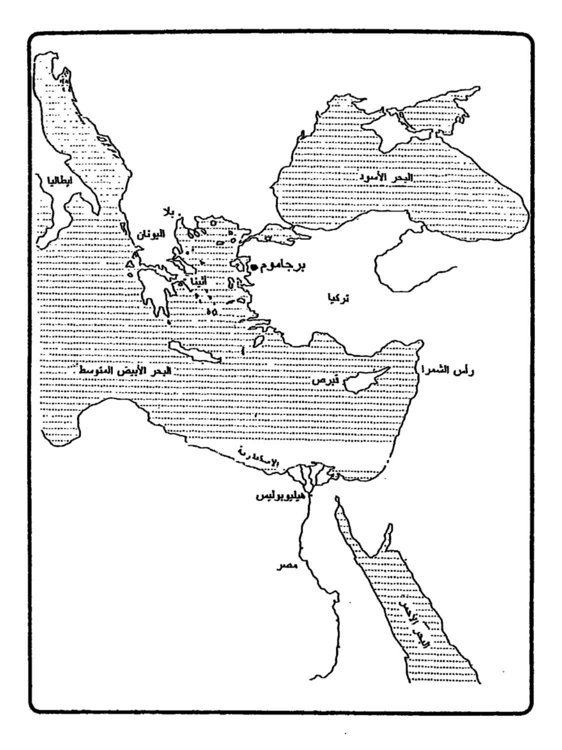
لم تقتصر الحضارة الإغريقية على ما عرف بالبر اليوناني الذي تشغله بلاد اليونان اليوم والواقع في شبه جزيرة البلقان، وإنما امتد إلى أماكن أخرى خارجه. فقد خرجت تلك الحضارة منذ وقت قديم إلى جزر البحر الأبيض المتوسط وبحر إيجه، كما امتدت شرقاً وجنـوباً. وأسس النازحون من تلك المناطق حضارات خارج بلادهم الأصلية. وقد اتضح هذا التوسع بكثافة في عهد الإسكندر المقدوني (الأكبر) Alexander The Great الذي أسس مملكة واسعة الأرجاء امتدت ـ فيما امتدت ـ من الهند شرقاً إلى مصر غرباً. إلا أنـه بمـوتـه في عام ٣٢٣ق.م. لم تستطع مملكته الاستمرار طويلاً، فسرعان ما اقتسمها قواده الكبار. فقد أسس البطالمة مملكة لهم في مصر واتخذوا من الإسكندرية التي أسسها الإسكندر المقدوني في عا ٣٣٢ق.م. عاصمة لهم. واستقل السلوقيون Seleucids في سوريا وجعلوا انطاكية حاضرة لها. وفي آسيا الصغرى استقل الأتاليون Attalid Dynasty بمملكة برجاموم Pergamum (Pergamon) بعد أن كانوا يحكمونها كمقاطعة تابعة لمملكة السلوقيين في سوريا[١] وتعود الحضارات التي ظهرت في جميع هذه الممالك في أصولها إلى الحضارة اليونانية. إلا أن الحضارة والثقافة اللتين ظهرتا في هذه الممالك لهما ما يميزهما عن الحضارة الأم، وذلك لامتزاجهما بحضارات الشرق العريقة. ولـذلك عرفت هذه بالحضارة الهيلينستية Hellenestic ويعني هذا المصطلح كل ماله علاقة بتاريخ اليونان ولغتها وحضارتهـا بعـد وفـاة الإسكنـدر المقـدوني فـي عـام ٣٢٣ق.م.[٢]

تقع برجاموم أو برجامون (أو برغامة كما تدعى في بعض المراجع العربية أحياناً) في أقصى الشمال الغربي من آسيا الصغرى (الشكل رقم ١) على ارتفاع ١٠٠٠قدم فوق سطح البحر، على بعد ١٤ ميلاً من بحر إيجه. ورغم أنه لا يُعرف الكثير عن تاريخها المبكر، إلا أن مملكة برجاموم يعود تاريخها إلى حوالي ٢٨ق.م. وقد تعاقب على حكمها عدد من ملوك الأسرة الأتالية هم على الترتيب.[٣]

- فيلاتورس	Philetaerus	(٢٨٠-٢٦٣ق.م)
- يومينس الأول	Eumenes 1	(٢٦٣-٢٤١ق.م)
- أتالوس الأول	Attalus 1	(٢٤١-١٩٧ق.م)
- يومينيس الثاني	Eumenes II	(١٩٧-١٥٩ق.م)
- أتالوس الثاني	Attalus II	(١٥٩-١٣٨ق.م)
- أتالوس الثالث	Attalus III	(١٣٨-١٣٣ق.م.)

وقد وصلت هذه المملكة إلى أوج ازدهارها في عهد يومينيس الثاني الذي عُدَّت فترة حكمه التي استمرت مايقرب من ٤٠ عاماً، الفترة الذهبية لمملكة برجاموم. وقد أدت الحفريات التي أجريت في موقع هذه المدينة ـ تحت إشراف متحف برلين ومولتها حكومة ألمانيا بين عامي ١٨٧٨-١٨٨٦م ـ إلى إكتشاف كنوز فنية ومعمارية ثمينة.[٤]

وقد مكنت هذه الاكتشافات الآثاريين من وضع مخططات للمعالم الرئيسة للمدينة، كما أظهرت الأماكن الأكثر أهمية في هذه المدينة العريقة. على سبيل المثال وجدت المباني المهمة كالقصر الملكي، والمخازن، والثكنات العسكرية، والمسرح، ومعبد أثينا ذو الفناء الفسيح والأعمدةالعالية المحيطة به. وإلى جوار المعبد تقع مكتبة برجاموم الشهيرة. وكان من الاكتشافات المهمة مذبح زيوس Zeus الذي يقدسه الإغريق، والمذبح غني بأفاريزه المزخرفة بوصفها إحدى روائع الحضارة الهيلينستية.



شكل رقم (١)

موقـع مدينة برجامـــوم

ولا تزال هذه التحفة الفنية الرائعة ذات الأفاريز النافرة محفوظة في متحف برلين. أما الجزء الرئيس من المدينة فيقع في المنحدر حيث تقع المباني السكنية. وينحدر شارع من أعلى المدينة يربطها بالمباني المأهولة بالسكان في المنحدر(٥)

٢ ـ ٣ ـ ٢. مكانة برجاموم

حظيت برجاموم بمكانة دولية مرموقة وذلك نتيجة لموقعها المهم، وما حققته من تطور نظراً لاكتشافها لثرواتها الطبيعية المتعددة واستغلالها. فقد اكتشف فيها مناجم الفضة، التي قام عليها العديد من الصناعات. كما أدت خصوبة أراضيها إلى قيام زراعة كثير من المحاصيل وخاصة القمح الذي كان لدى برجاموم فائض كبير منه صدرته إلى الدول الأخرى. كما استفادت من مراعيها الواسعة في تنمية ثروة حيوانية كبيرة، ساعدت على قيام الكثير من الصناعات، كالصناعات النسيجية والجلدية. ولعل أهم صناعة قامت على الإنتاج الحيواني اشتهرت بها برجاموم وخلد اسمها في التاريخ هو صناعة الرَّق Parchment (Vellum) الذي اشتق اسمه من اسم المملكة نفسها. كما اشتهرت مدينة برجاموم بنمطها المعماري المميز الذي ظهر واضحاً في المعابد، والسور، والحصون، وساحات المدينة التي زينت بأعمال الفن اليوناني من أنصبة وتماثيل وغيرها. حتى أصبحت من أجمل المدن الهيلينستية، إن لم تكن أجملها على الإطلاق. وبلغ عدد سكانها في عهد الرومان مائتي ألف نسمة. وقد ازدهرت هذه المملكة ما يقرب من قرن ونصف القرن. وكما أشير سلفاً فإن هذه الدولة غنية بمصادرها الطبيعية التي قام عليها الكثير من الصناعات. فاستفادت حكومتها من الضرائب المفروضة على التجارة والصناعة والزراعة فشيدت القلاع والقصور والطرقات والميادين العامة. واشتهرت برجاموم بمدرستها المعمارية المميزة، وخاصة في فن النحت، حتى أصبح نمطها المعماري مثلاً يحتذى به في الدولة الرومانية. وأصبحت مدينة برجاموم بحق من أجمل المدن وأهمها لا في آسيا فحسب، بل بين جميع مدن اليونان في الفترة الهيلينستية.(٦)

٣ ـ ٣ ـ ٢ .   مصير مملكة برجامـــوم

يعتقد بارسونز أنه بموت أتالوس الثاني أتت الأسرة الأتالية إلى نهايتها. ذلك أن خلفه أتالوس الثالث كان حاكماً ضعيفاً لا يصلح للحكم، قضى وقتاً من حكمه في تدبير المؤامرات ضد أقاربه الذين كان يقوم بتجريعهم السموم للتخلص منهم. هذا بالإضافة إلى قيامه بأعمال لا تمت إلى شؤون البلاد بصلة، كممارسة هواياته في الزراعة، وصناعة الصور أو التماثيل الشمعية. وبموته في سنة ١٣٣ق. م. سلمت مملكة برجاموم إلى الرومان. وفقاً لوصيته.

وقد حققت هذه المملكة الصغيرة الكثير من المنجزات الحضارية المهمة. وأحرزت انجازات رائعة في مجال الثقافة والفنون والآداب فضلاً عن مكتسباتها في مجال الصناعة، والزراعة، والتجارة. وانتهى بها المطاف إلى الذوبان في البلدان المجاورة لتشكل جميعها ما عرف بالمقاطعة الرومانية الآسيوية. [٧]

٤ ـ ٢ ـ ٢ .   مكتبة برجاموم **Pergamene Library**

١ ـ ٤ ـ ٢ .   أهميتهـا وموقعهـــا

عدّ ملوك الأسرة الأتـالية مكتبتهم من أهم المنشـآت في مدينة برجاموم، ولذلك شيدت في الأكـروبـولس Acropolis وهو الحي الأرستوقراطي من المدينة، وارتبطت بمعبد أثينا Temple of Athena. وقد كشفت الحفريات التي أجراها متحف برلين عن وجود أربع غرف يحتمل أنها جزء من المكتبة. وتبلغ أطوال أكثر هذه الغرف اتساعاً ٤٢×٤٩ قدمـا[٨]، ويشـير جونسون وهاريس إلى أن أكبر تلك الغرف تبلغ أبعادها ٤٥×٥٥ قدماً. وهي بذلك تتسع لحوالي ٢٠ ألف لفافة[٩]، كما أشار جاكسون إلى أن مساحة المكتبة تقدر بنحو ١٠×٧٠ ياردة، وهذا الحيز يمكن أن يتسع لحوالي ١٦٠ ألف لفافة. [١٠]

ويفـترض أن المكتبـة اشتملت على كُوى Pigeon Holes لحفظ اللفـائف. ومن المحتمـل أنها احتـوت على مقـاعد طويلة Benches وضعت بحيث تحول بين القراء

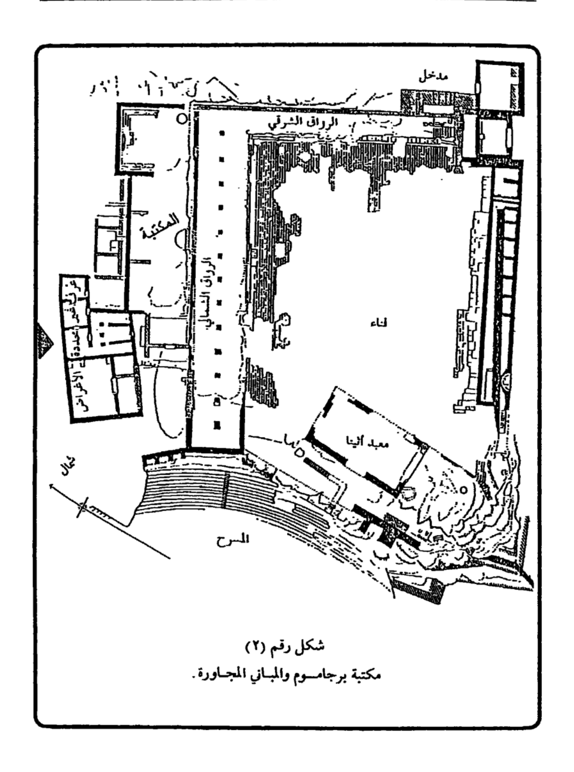
وأماكن الكتب ضماناً لسلامة اللفائف البردية من ناحية، ولتسمح بترك مسافة كافية لفرد لفائف البردي عند تصفحها أو قراءتها من ناحية أخرى. هذا فضلاً عن استخدام تلك المقاعد للغرض الأساسي منها وهو الجلوس عليها[١١]. ويعتقد أن طراز البناء في هذه المكتبة قد تأثر بطراز مكتبة أرسطو في أثينا، حيث تسود الأروقة المعمدة. وقد أصبح طراز البناء في مكتبة برجاموم مثالاً يحتذى به في المكتبات الرومانية.[١٢]

ويشير الشكل (٢) إلى اكروبولس Acropolis مدينة برجاموم. ويمثل هذا الشكل مخطط الدور الأرضي. وقد أخذ هذا المخطط من إحدى لوحات المكتشفات الألمانية التي أجـراها متحف برلين. ويظهر فيه معبد أثينا وفناؤه الواسع في مدينة برجاموم. وتظهر المكتبة وبعض المباني المجاورة، وخاصة المسرح الذي يقع في الناحية الغربية. ويقع المدخل في الناحية الشرقية من الأكروبولس ويقود مباشرة إلى الرواق الشرقي East Cloister الذي يساوي عرضه نصف عرض الرواق الشمالي North Cloister ويقل عنه طولاً. ويحاذي الرواق الشمالي المكتبة، ويتميز هذا الرواق باتساعه وبوجود صف كامل من الأعمدة يمتد على طول الرواق من الغرب إلى الشرق، ويقع في منتصف الرواق تماماً.

وقد وجدت إلى شمال موقع المكتبة أربع غرف يظن المكتشفون الألمان أنها تابعة للمكتبة. وتبلغ أبعاد أكبر تلك الغرف ٤٢×٤٩ قدماً.[١٣]

٢ ـ ٤ ـ ٢. مؤسسها

اختلفت المراجع التاريخية حول هذا الأمر. فقد أشار كثير ممن أرخ للمكتبات في الغرب إلى أن أتالوس الأول هو من يعود له فضل تأسيس هذه المكتبة. وممن نادي بهذا الرأي جونسون وهاريس،[١٤] وهو ما ذهب إليه جاكسون[١٥]، وسافج[١٦]، وبارسونز[١٧]، وسفند دال،[١٨] وغيرهم.



شكل رقم (٢)
مكتبة برجامـوم والمبـاني المجـاورة.

المصـــدر : كتابة العنـاية بالكتب لمؤلفه جـون ويلـز كلارك.
حاشية رقـم (٤).

أما استرابون فذهب إلى أن يومينيس الثاني هو الذي أسس المكتبة. وهو رأي أيده عديدون مثل؛ كلارك،(١٩)، وأولي(٢٠) وغيرهما. ويرجح الباحث أن أتالوس الأول هو الذي يعود له فضل تأسيس هذه المكتبة، حيث جمع نواتها الأولى من الكتب. ولا غرابة في ذلك فقد كان هذا الحاكم كاتباً ونصيراً للفنون، كما كان راعياً لمدرسة برجاموم. إلا أن المكتبة تطورت تطوراً كبيراً في عهد ابنه وخلفه يومينس الثاني الذي جمع أعداداً كبيرة من الكتب من مختلف الأنحاء لهذه المكتبة، كما شيد بناءً فخماً خاصاً بها. وقد أصبح طراز هذا البناء مثالاً يحتذي به وخاصة للمكتبات الرومانية حيث كان تأثير هذه المكتبة وطراز عمرانها كبيراً ومباشراً على المكتبات الرومانية.(٢١)

وفي عهد يومينيس الثاني حدثت واقعة معروفة مفادها أنه ـ في نطاق التنافس القائم بين مكتبـة الإسكنـدرية ومكتبة برجاموم ـ حاول أن يُغري أحد أهم مكتبي مكتبة الإسكنـدرية واسمـه أرسطوفان البيزنطي Aristophancs of Byzantium بالمجيء إلى برجـامـوم للعمـل بمكتبتهـا. إلا أن أمره افتضح قبل اتمام هذا الأمر، فما كان من بطليموس الخامس إلا أن سجن أرسطوفان.(٢٢) تُدرج ضمن هذا السياق أيضاً مقولة إيقاف تصدير البردي إلى مملكة برجاموم ـ التي سبقت الإشارة إليها في الفصل الأول ـ والتي يجب أخذها بحذر شديد لعدم الاتفاق على صحتها.

٣ ـ ٤ ـ ٢. طرق التزويد وعدد المقتنيـات

تُعد تنمية مجموعات المكتبات إحدى وظائفها الحيوية. ويعتمد التزويد عادة على أربع قنوات رئيسة هي؛ الشراء، والتبادل، والإهداء، فضلاً عن الإيداع. وقد أدرك ملوك البطالمة في مصر، ومن بعدهم ملوك الأتاليين في برجاموم منذ ما يربو على ألفي سنة أن المكتبة كائن متطور وذلك قبل أن يدرك هذه الحقيقة علماء المكتبات في القرنين التـاسـع عشر والعشرين. ولذلك عملوا بكل الطرق المتاحة في ذلك الوقت بتطوير مكتبتهم وزيادة مجموعاتها.

ومن المعلوم أن طرق تنمية مجموعات المكتبة قد اختلفت على مر العصور. ومن الطرق التي كانت سائدة قبل اختراع الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر طريقة الكتابة، أو الاستنساخ في المكتبة نفسها، حيث يكلف المسؤولون عن المكتبات عدداً من الكتبة أو النساخ لاستنساخ الكتب المراد اقتناؤها، وذلك من أجل إثراء المكتبة وزيادة مقتنياتها. كما كان التكليف بالتأليف أو الترجمة أسلوباً آخر، كما اتبع في مكتبتي الإسكندرية وبرجاموم حيث كانت المكتبتان أشبه بمركزي أبحاث يستقطبان كثيراً من العلماء في مختلف العلوم والفنون، وكانت أبحاث هؤلاء العلماء تضاف إلى مقتنيات المكتبتين.[٢٣] وهناك أسلوب آخر طبقته مكتبة الإسكندرية وتبعتها فيه مكتبة برجاموم، وهو إرسال وكلاء أو مندوبين يجولون البلدان (خاصة بلاد الإغريق) لشراء الكتب. إضافة إلى اتباع بعض الطرق الأخرى التي قد توصف بالتعسفية أو اللاأخلاقية التي طبق بعضها ملوك البطالمة في مصر من أجل إثراء مكتبة الإسكندرية ـ أهم وأشهر مكتبة عرفت في العالم القديم ـ وهو أسلوب المصادرة أو قريب منه. ومن تلك الطرق أيضاً أن بطليموس الثالث فرض على جميع السفن التي ترسو في ميناء الإسكندرية وعلى المسافرين تسليم ما يحملوه من كتب للمكتبة لتقوم باستنساخها وإبقاء أصولها لديها وتسليم أصحابها نسخاً منها. بل إن أحد حكام البطالمة استغل إحدى المجاعات التي أصابت أثينا، عندما رفض مدها بالطعام، حتى اضطرت لتسليمه نسخاً معتمدة من مآسي أسخيلوس Aeschylus وسفوكليس Sophocles ويوريبيدس Euripides ، وعندئذ أمدها بالطعام.[٢٤] ولقد اتبعت مكتبة برجاموم أكثر الطرق والأساليب التي كانت مطبقة في مكتبة الإسكندرية القديمة، لا من حيث التزويد فحسب، بل في طريقة تنظيم موادها أيضاً. فقد ذكرت بعض المصادر أن يومينيس الثاني ـ وهو الذي بلغت المكتبة في عهده أقصى درجات تطورها ـ كان جامع كتب نشطاً. وكان يعمل تحت إشرافه عدد كبير من النساخ الذين يواصلون العمل بشكل مستمر في نسخ الكتب لصالح المكتبة. وقد أشار المؤرخ المعروف استرابون أن نيلوس Nelus ، وهو مدرس وصاحب مكتبة من مدينة سكيبس Scepsis في آسيا

الصغرى، قد ترك كتبه لورثة غير متعلمين، غير أنهم مع ذلك يقدرون أهمية الكتب. ولذلك دفن أولئك الورثة تلك الكتب حتى لا يصادرها ملوك برجاموم.[٢٥]

ويوضح ذلك بجلاء مدى التشابه بين مكتبتي الإسكندرية وبرجاموم، في الطرق والأساليب غير العادية من أجل الحصول على الكتب. وهكذا لابد أن ملوك الأتاليين قد بذلوا جهوداً مضنية في محاولاتهم اللحاق بمكتبة الإسكندرية. ويبدو أنهم نجحوا إلى حد كبير في هذا المجال. ويعضد هذا الرأي معرفة أن ما جمعه ملوك الأتاليين وخاصة يومينيس الثاني من الكتب قد قاربت المئتي ألف في فترة قصيرة نسبيا.[٢٦]

٤ ـ ٤ ـ ٢. تنظيم المجموعات: الفهرسة والتصنيف

وصلت مجموعات مكتبة برجاموم إلى مئتي ألف. وكان لابد لمجموعة كبيرة كهذه من اتباع نظام دقيق يمكن القارىء أو الباحث من الوصول إلى بغيته من المعلومات في هذا الكم الهائل من الكتب. ومع أنه لم يمكن العثور على نص يوضح الطرق المتبعة في فهرسة كتب المكتبة وتصنيفها، إلا أنه من المحتمل أن أمناء مكتبة برجاموم لجأوا إلى الطرق والأساليب نفسها التي اتبعتها مكتبة الإسكندرية حيث كانت الأولى تسير على خطى الأخيرة، وخاصة في مجالات التزويد والفهرسة والتصنيف. فقد أشار مؤرخ المكتبات جاكسون إلى هذه الحقيقة حين ذكر أن مكتبة برجاموم قد طبقت في مجال التزويد والفهرسة والتصنيف الأساليب والطرق نفسها التي اتبعتها منافستها مكتبة الإسكندرية[٢٧] فأرسلت وكلاءها إلى العالم المعروف آنذاك، وخاصة المدن الإغريقية. وقد أشار بارسونز إلى أن كراتس المالوسي Crates of Malus (Mallos) وهو أشهر مكتبيي برجاموم ـ قام بعمل فهارسه المشهورة (Pinakes) للأعمال النثرية والشعرية.[٢٨]

٥ ـ ٤ ـ ٢. حجم المقتنيـــات

لا تسعفنا المصادر التاريخية بالكثير من المعلومات حول إحصائية دقيقة لكتب مكتبة برجاموم. لكنه يستشف أن مجموعات الكتب قد وصلت إلى مئتى ألف لفافة،[٢٩] ومن

تلك ما أشار إليه بارسونز حول مجموع لفائف تلك المكتبة في عام ٤١ق.م.[٣٠] وقد أشار إليه بلو تارك Plutrach من أن ماركوس أنطونيوس Mark Anthony قد أهدى إلى كليوباترا مئتي ألف لفافة أُخرجت من مكتبة برجاموم، تعويضاً لها عما أصاب مكتب الإسكندرية الرئيسة (البروكيوم)، التي يعتقد أنها احترقت في عام ٤٧ق.م. عندما أضرم جيش يوليس قيصر Julius Casear النار في الأسطول المصري ومعه جزء من حي البروكيوم الذي تقع فيه المكتبة.[٣١] أقول إن صحت تلك الرواية، فإن الكاتب يرجح أن يكون عدد اللفائف في مكتبة برجاموم يفوق مئتي ألف. إذ إنه من غير المعقول أن يعمد أنطونيوس إلى تسليم جميع كتب المكتبة إلى كليوباترا، ويترك مكتبة برجاموم خالية من الكتب، بل المنطقي أن يبقى على جموعة معقولة من الكتب في المكتبة.

٢ ـ ٤ ـ ٦ . طبيعة المقتنيـــات

رغم أن الرَّق استخدم وسيطا للكتابة منذ آلاف السنين، إلا أن مملكة برجاموم هي صاحبة الفضل في تطوير صناعته واستخدامه على نطاق واسع في الكتابة. ومن المرجح أن معظم كتب تلك المكتبة كانت من لفائف البردي.[٣٢] وربما يعود السبب في ذلك إلى أن الرَّق لم يعم استخدامه إلا في فترة متأخرة جداً بعد ذلك التاريخ.

٢ ـ ٤ ـ ٧ . المكتبة وعلمـاء برجاموم

لم تكن مكتبـة برجـامـوم مكتبـة بالمعنى التقليدي فحسب، بل إنها مثـل مكتبة الإسكنـدرية القديمة كانت مدرسة أو مركزاً يُعنى بالأبحاث.[٣٣] ومن المعروف أن موسيوم أو أكاديمية الإسكندرية قد ضمت بين جنابتها صفوة من العلماء تراوح عددهم مابين سبعين ومئة في مختلف التخصصات. وكان لهؤلاء تنظيمهم الخاص. ويشرف على الأكاديمية أحد الكهنة الذي يتم تعيينه من قبل الحاكم. وينضوي تحت هذا المنصب العديد مـن التخصصات والأقسام الأكاديمية التي يعمل بها عدد من المتخصصين، ولكل منهـا رئيس يشـرف على أعمالهـا.[٣٤] ومـن المحتمل أن مدرسة برجـاموم نهجـت نهج

أكاديمية الإسكندرية. ومع أن المصادر التاريخية لا تمد الباحث بكثير من التفاصيل حول هذا المـوضـوع، إلا أن هناك عدداً من العلماء الكبار ممن تبوأوا رئاسة مدرسة برجاموم ومكتبتها أو عملوا بها. ولم يكن مكتبيو برجاموم من أولئك الموظفين العاديين الذين يؤدون عملاً روتينياً، بل كانوا مجموعة من العلماء الذين برز كل منهم في ميدانه. مثلهم في ذلك مثل أقرانهم في مكتبة الإسكندرية القديمة.

ويأتي على رأس هؤلاء كراتس المـالـوسي، الذي تولى إدارة هذه المدرسة فترة من الزمن. وقد دعي هذاالعالم إلى روما في عام ١٦٨ق.م. (أو ١٧٠ق.م)، وذلك من أجل تطوير الدراسات الإغريقية بها[٣٥]. بالإضافة إلى إعطاء المشورة في الفن المعماري للمكتبـات.[٣٦] وكـان خصـماً لبعض معـاصريه من العلماء، من أمثـال الجغـرافي أرستـارخـوس Aristarchus أحد أبرز علماء أكاديمية الإسكندرية، الذي يعتقد أنه اكتشـف دوران الأرض حـول الشمـس قبـل أن يكتشفه العالـم كوبرنيكس[٣٧] Copernicus ، ويعتقـد أن كراتس هذا هو الـذي أسس المـدرسـة النحوية التابعة لأكاديمية برجاموم، وأنه جمع فهارس Pinakes للأعمال النثرية والشعرية.[٣٨] كما كان مؤلفاً بارزاً، إذ إن له كتابين أو ثلاثة في الشعر، بالإضافة إلى أعمال مختلفة في الجغرافيا والتـاريخ الـطبيعي. لكن الـدراسات النقدية كانت محور اهتمامه، فقد تخصص في الدراسات حول الشاعر اليوناني الشهير هوميروس Homer صاحب الإلياذة والأوديسا Iliad and Odyssey كما يعود له الفضل في ظهور الاهتمام بالدراسات الأدبية في روما. وكدليل على علو مكانته في بلاط الأتاليين فقد اصطحبه أتالوس الثاني عندما ذهب إلى رومـا[٣٩] على رأس وفـد من علماء أكـاديمية برجـاموم، يأتي في مقدمتهم أثينـدروس الطرسوسي Athinodurs of Tarsus الذي تولى إدارة المكتبة فترة من الزمن. كما ذهب إلى روما لتقديم المشورة في إقامة منشآت المكتبات هناك.[٤٠] ويعود التأثير المباشر لطراز برجـامـوم في رومـا وطراز البناء في المكتبات على نحو خاص إلى زيارة علماء مدرسة برجاموم إلى هذه المدينة.[٤١]

ولم يقتصر علماء برجاموم على تخصص دون آخر، وإنما كان بينهم الشعراء والفلاسفة والكتاب والمؤرخون والأطباء. ففي مجال الشعر؛ يمكن الإشارة إلى الشاعرين نيكاندر Nicander ، وموسوس الأفسوسي Musaeus of Ephesus اللذين تغنيا بأمجاد ملوك الأسرة الأتالية، وخاصة أتالوس الأول ويومينيس الثاني. (٤٢) وفي الفلسفة؛ أنتيقونس الكارتوسي Antigonus of Carytus الذي لم يكن فيلسوفاً فحسب، بل كان بالإضافة إلى ذلك كاتب سير وفناناً ومؤلفاً. وفي مجال التاريخ يُذكر المؤرخ أبولودورس الأثيني Apollodorus the Athenian الذي أهدى كتاباً إلى أتالوس الثاني. كما كان هناك أيضا مؤرخ بلاط برجاموم نينش Neanthes الذي ألف كتاباً حول أتالوس الثاني.

وفي مجال العلوم، يشار إلى بيتون Biton الذي أهدى إلى أتالوس الثاني أبحاثه حول معدات الحرب. كما كان من بين العلماء أبولونيس Appollonius of Perge الذي أهدى كتابه حول الأشكال أو الأقسام المخروطية إلى أتالوس الأول. وفي مجال الطب؛ عدت برجاموم منتجعاً صحيًا للاستشفاء، وكان الطبيب جالينوس Galen من برجاموم، وهو أشهر الأطباء في العصور القديمة. (٤٣)

٨ - ٤ - ٢ . برجاموم وصناعة الرّق أو البرشمان Parchment (Vellum)

لايكاد يذكر الرَّق كوسيط للكتابة إلا وتذكر معه مملكة برجاموم. لا بل إن اسم هذه المادة Parchment (٤٤) اشتق اسمها من اسم Pergamum. وأفضل أنواع الرَّق يدعى Vellum وهو نوع من الرَّق يختلف عن الرَّق العادي لشدة بياضه ونعومته ورقته. ويستخرج هذا النوع من جلود صغار العجول. ويرى بعض الباحثين أن الفرق بين البرشمان Parchment و (Vellum) أن الأول يستخرج من جلود الضأن، والثاني من جلود صغار العجول. (٤٥) أما ما أورده بعض المؤرخين من أن اتخاذ الرَّق وسيطاً للكتابة كان من اختراع مملكة برجاموم، فإنه لا يخلو من المبالغة. إذ من المعروف أن معالجة الجلود والاستفادة منها لأغراض متعددة ومنها الكتابة عليها، قد وجد في مناطق البحر المتوسط

مثل: مصر، والعراق، وفلسطين، وفي بلاد فارس، وفي آسيا الصغرى، وفي بلدان أخرى قبل نشوء مملكة برجاموم[٤٦]. فعلى سبيل المثال يشير بِلْ إلى أن البردي لم يكن وسيط الكتابة الوحيد المستخدم في مصر والعالم القديم بوجه عام، وإنما كانت الجلود ـ بعد تجهيزها ـ كانت تستخدم في مصر. ويضيف قائلا: (. . . ولا يقوم الرق بأي دور فيما لدينـا من آثـار عثـر عليهـا في مصر اليونـانية ـ والرومانية قبل القرن الثاني الميلادي، ولكن من ذلك التارخ ومابعده، أخذ يعم استعماله بدرجة مطردة). بينما يرى ستيبتشفيتش أن أقدم نص مكتوب على الجلد في مصر يعود إلى القرن الخامس عشر ق.م.[٤٧]، وفي بلاد الـرافدين إلى القرن التاسع ق.م. ومن هذين البلدين انتشر استعـماله ليصل إلى بلاد الفينيقيين والشعوب الأخرى في شرق البحر المتوسط. أما ديرنجر فيري أن أقدم وثيقة كتبت على الرّق تعود إلى الفترة من ٢٥٥٠ـ٢٤٥٠ق.م.[٤٨]

ومع أنه لم يثبت تاريخياً شرف اختراع مملكة برجاموم للرق كوسيط للكتابة، إلا أنه من الواضح أنه يعود إليها الكثير من الفضل في تطوير هذه المادة لتصبح أكثر ملائمة للكتابة عليها والتوسع في استخدامها. وجاء هذا التطوير نتيجة لجهود مضنية وخلال وقت طويل من أجـل معالجة الرَّق حتى أصبح وسيط كتابة أفضل من البردي. ولم ينافس البردي الذي كان الوسيط الرئيس للكتابة في بدايات اختراعه، بل بقي شائعاً مدة طويلة. ثم بعد ذلك أخذ الرَّق ينافسه تدريجياً حتى القرن الرابع الميلادي حيث ساد استخدامه. ومع أن استخدام البردي كوسيط للكتابة اختفى بعد ذلك أو كاد في أغلب الأماكن، فإنه لم يختف تماماً في مصر، إذ عثر على بعض البرديات التي تعود إلى القرنين الرابع والخامس بل والسادس الميلادي.[٤٩]

وإذا صحت رواية حظر تصدير البردي إلى مملكة برجاموم، التي أشار إليها الكثير من المؤرخين الغربيين، والتي مفادها أن مملكة البطالمة حظرت تصدير البردي إلى مملكة برجاموم خشية منافسة مكتبة برجاموم لمكتّبة الإسكندرية، فإن هذا العمل ربما أسهم

في الإسراع في تطوير صناعة الرَّق في برجاموم وتحسينه كوسيط رئيس للكتابة، وبالتالي استخدامه على نطاق واسع. ومهما كانت الأسباب وراء ذلك، فإن مما لاشك فيه أن لموقع مملكة برجاموم أثراً واضحاً في هذا التطوير، ذلك أن أراضي هذه البلاد كانت عبارة عن مراع واسعة وسهول خصبة تميزت بماشيتها الوفيرة التي قام على إنتاجها الكثير من الصناعات النسيجية والجلدية التي مثلت الأعمدة الرئيسة للاقتصاد والإنتاج القومي في مملكة برجاموم، إذ أسهمت ـ إلى جانب الإنتاج الزراعي ـ في الازدهار الاقتصادي لهذه المملكة الفتية. وقد أمكن التطوير والتحسين في صناعة الرُّقوق نتيجة للمعالجة الطويلة لهذه المادة ولأساليب المعالجة نفسها، حتى أمكن الحصول على رق أبيض ناعم يشبه إلى حد كبير الورق الأبيض الجيد صفاءً وبياضاً والمتفوق عليه قوة ومتانة.

وبمقارنة الرَّق بالبردي كوسيطي كتابة فإن الأول يتميز على الأخير بمزايا عديدة منها: [٥٠]

١ ـ الكتابة على صفحة الرَّق من الجانبين؛ وهذه ميزة مهمة في ذلك الوقت لما في ذلك من الاقتصاد في الكمية المستهلكة، هذه الميزة لا تتوفر في البردي.

٢ ـ سهولة الكتابة على سطحه وذلك لنعومته.

٣ ـ مرونته الناتجة عن ليونة الجلد المعالج؛ مما يجعله أقل عرضة للكسر من البردي.

٤ ـ مقاومته للحريق بالمقارنة مع البردي والورق. [٥١]

٥ ـ إمكان تنظيفه في حالة اتساخه.

٦ ـ الجانب الداخلي من الجلد (الموالي للحم الحيوان) يبدو أكثر قتامة من الجانب الخارجي، إلا أنه مع ذلك يحتفظ بالحبر بشكل أفضل.

٧ ـ الرَّق ـ على نقيض البردي الذي لا ينمو إلا في مصر ـ يمكن أن يوجد في كل البلاد وبالتالي فهو غير قابل للاحتكار كالبردي.

٨ ــ قوة تحمله للعوامل المناخية.[٥٢]

٩ ــ إمكـانية المسـح والكتـابة على وثيقة الرَّق؛ هذه الميزة يمكن اعتبارها إحدى المحاسن من منطلق ندرة مواد الكتابة في الماضي البعيد مما يمكن من الاستفادة منها أكثر من مرة. إلا أنه من ناحية أخر يمكن اعتبارها إحدى المساوىء لما يسببه مسح الوثيقة وإعادة كتابتها من التزوير في الوثائق، ولو أنه في الوقت الحاضر أصبح من الممكن بواسطة التقنيات الجديدة في الأشعة إعادة تسجيل النص الممحى وقراءته بسهولة.

ولم يكن للرَّق شعبية كبيرة في بدايات استخدامه. إلا أنه منذ النصف الأول من القـرن الـرابـع الميلادي فاقت أهميته أهمية البردي. ويشير بل إلى أن الرَّق كوسيط للكتابة ـ وفقاً للآثار التي عثر عليها ـ لم يكن له دور في العصر اليوناني والروماني قبل القـرن الثاني الميلادي[٥٣] وكان يقتصر استخدامه في بداياته على الرسائل والمذكرات الموجزة والوثائق، إلا أنه شيئاً فشيئاً بدىء في استخدامه في صناعة الكتب. وقد ظل الرَّق يناضل حوالي ثلاثة قرون قبل أن ينتصر على البردي حيث أخذ استخدام البردي في الاضمحلال بالتدريج منذ القرن الرابع الميلادي. الجدير بالذكر أنه وجدت بعض الوثائق البردية التي كتبت في القرن الحادي عشر الميلادي، إلا أنها كما أشار سفند دال حالات شاذة تعود في مجملها إلى ندرة الرَّق أو المغالاة في ثمنه.[٥٤]

٩ ـ ٤ ـ ٢. مكتبة برجاموم والمكتبات الأخرى: التأثر والتأثير

يمكن النظر إلى علاقة مكتبة برجاموم مع المكتبات الأخرى من خلال تأثر هذه المكتبة أو تأثيرها على المكتبات السابقة أو اللاحقة لهـا، وذلـك مـن خـلال المحـورين التـاليين:

١ ـ ٩ ـ ٤ ـ ٢ . علاقة برجاموم مع مكتبة الإسكندرية: مرحلة التأثر والمنافسة

أشـير في الفصـل الأول إلى طرف من علاقة هذه المكتبة مع مكتبة الإسكندرية القديمة. وفي إطار العلاقـات بين المكتبتين والمملكتين تحسـن الإشـارة إلـى الوقفـات التالية:

(١) كانت مكتبـة الإسكنـدرية القـديمة ـ التي تعد أهم وأشهر مكتبة في العالم القديم ـ المثل الأعلى لمكتبة برجاموم. وقد ترسمت الأخيرة خطى الأولى، وسارت على نهجها وطريقة عملها. وقد ظهر هذا جلياً في طرق جمع الكتب، وفهرستها وتصنيفها (تنمية المجموعات، وتنظيمها)[٥٥]

(٢) كان اهتمام ملوك الأتاليين بمكتبة برجاموم لا يقل عن اهتمام ملوك البطالمة بمكتبة الإسكندرية. وقد ظهر هذا بجلاء في عهد يومينيس الثاني الذي عدت فترة حكمه العصر الذهبي للمكتبة بشكل خاص وللمملكة بشكل عام. وقد بلغت المكتبة في هذه الفترة أقصى درجات رقيها لما وفره لها من الدعم والتشجيع الذي تمثل في إقامة مبنى جديد لها، وإيجاد طرق وأساليب للتزويد المستمر لمجموعاتها، فضلاً عن توفير المكتبيين من العلماء. وحقيقة أصبحت المكتبة في عهد يومينيس الثاني أشهر مكتبة في العالم القديم بعد مكتبة الإسكندرية القديمة.

(٣) أشار كثير من الباحثين إلى أن ملوك البطالمة قد شعروا بحرص واهتمام بعض ملوك الأتاليين وخاصة يومينيس الثاني، ولذا خشوا من منافسة مكتبة برجاموم لمكتبتهم فلجأوا إلى حظر تصدير البردي إلى مملكة برجاموم في محاولة لوقف تقدمها.[٥٦] وعلى النقيض من ذلـك، يرى مؤرخـون آخـرون أنـه لاثمـة وجـه للمقـارنة بين مكتبتي الإسكندرية القديمة ومكتبة برجاموم لأن مكتبة الإسكندرية التي استمرت مايربو على أربعة قرون قد فاقت بمراحل مكتبة برجاموم التي عاشت قرناً ونصفاً.[٥٧] وإذا كان

حظر تصـدير الـبردي إلى مملكة برجاموم قد ثبت بالفعل، فإن أسبابه ربما تعود إلى الطلب المتزايد عليه في داخل مصر نفسها، وبشكل خاص في زمن بطليموس السابع.[٥٨]

٢ ـ ٩ـ ٤ ـ ٢ العلاقة مع المكتبات الأخرى: مرحلة التأثير

(١) تأثرت المكتبات الرومانية بمكتبة برجاموم وخاصة بطرازها المعماري. وظهر هذا واضحاً عندما سيطر الرومان على مملكة برجاموم. ويرى كلارك أن التأثير المعماري لمكتبة برجاموم على المكتبات الرومانية قد تم حتى قبل أن تصبح مملكة برجاموم ضمن الولايات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية[٥٩] حيث أصبح بناء هذه المكتبة نموذجاً يحتذى به.

(٢) في نطاق تأثـير مدرسـة برجاموم وطرازها المعماري، فقد سبقت الإشارة إلى الزيارات التي قام بها بعض علماء برجاموم إلى روما. من أمثال كراتس المالوسي الذي زار روما في عام (١٦٨ أو ١٧٠ق.م.) سفيراً ليومينيس الثاني، وذلك من أجل تطوير الدراسات الإغريقية في روما، وتقديم بعض المشورة في الفن المعماري للمكتبات.[٦٠]

(٣) أشـار بارسـونـز إلى أن أتالوس اصطحب في زيارته إلى روما العالم كراتس المـالوسي، والطبيب ستراتيوس حيث ألقى الأول محاضرات نقدية في الأدب. وهذا ـ على حد زعم بارسـونـز ـ أسهم في تذوق المعـرفة الصافية للآداب الإغريقية لدى الرومان، مما رفع من قيمة ملوك الأسرة الأتالية.[٦١]

(٤) لم تكن مكتبة برجاموم مكتبة فحسب، لكنها كانت في واقع الأمر أكاديمية تعج بالعلماء على اختلاف تخصصاتهم. ولم يكن كراتس المالوسي العالم الوحيد الذي دعى إلى روما للاستفادة من علمه ومشورته، وإنما دعي إليها عدد من علماء برجاموم البـارزين، يأتي في مقدمتهم بالإضافة إلى الطبيب ستراتيوس Stratius ، أثينـدورس الطرسوسي الذي تولى إدارة هذه المدرسة فترة من الزمن.[٦٢]

١٠ ـ ٤ ـ ٢ . نهاية مكتبة برجاموم

استمـرت المكتبـة ما يقـارب مئة وخمسين عاماً، كانت خلالها ملاذاً للعلماء على اختلاف مشاربهم. ولا يعرف على وجه الدقة إن كان أغلب كتبها من الرَّقوق أم من لفافات البردي، وإن كان يرجح أن محتواها من لفافات البردي أكثر من الرَّقوق، لأن الاستخدام المكثف للرقوق بدأ منذ القرن الرابع الميلادي.

وقـد اشتملت هذه المكتبـة على كنوز إنسانية لا تقدر بثمن [٦٣] ولعله من المفيد الإشارة إلى أنه بعد مقتل يوليوس قيصر أصبحت الولايات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية، ومنها مملكة برجاموم، تحت حكم ماركوس أنطونيوس الذي أصبح بينه وبين كليوباترا ملكة البطالمة علاقات خاصة. وقد سبقت الإشارة إلى الرواية التي أوردها بلوتارك وفحواها أنه استخرج مئتي ألف لفافة من مكتب برجاموم وأهداها إلى كليوباترا تعويضاً لها عما أصاب مكتبة الإسكندرية من تدمير على يد جيش يوليوس قيصر في سنة ٤٧ق.م. ومع أن هـذه الرواية مشكوك فـي صحتها فإن بعـض المؤرخين يشيرون إلـى أن الامـبراطور أغسطس Augustus ربمـا استعـاد جزءا منهـا أو كلهـا إلـى مكتبة برجـاموم. [٦٤]

ومن المعروف أن مكتبة برجاموم قد وصلت أوج عظمتها في عهد الملك يومينيس الثاني إلا أنه تولى الحكم بعده ملوك ضعاف، مالبث المملكة ومكتبتها أن انحدرتا. ويصدق هذا على نحو خاص على فترة حكم أتالوس الثالث (١٣٨-١٣٣ق.م) الذي نص في وصيته على تسليم برجاموم إلى الرومان، وتم ذلك في عام ١٣٣ق.م. [٦٥] وسواء صدقت روايتـا نقل اللفائف من مكتبة برجاموم إلى مكتبة الإسكندرية، ثم إعادتها جميعاً أو بعضها أم لم تصدقا، فإن مما لاشك فيه أن مكتبة برجاموم لم تلق العناية التي تستحقها في عهد الحكام الرومان الذين لم يعملوا شيئا لتطويرها، أو حتى إبقاءها عند المستـوى الـذي وصلت إليه. [٦٦] بل إن بعض المصادر قد أوردت أن بعض هؤلاء الحكام قد نقلوا كثيراً من محتويات المكتبة إلى روما. [٦٧]

وتشير رواية روسية غير مؤكدة إلى أن الفاتحين المسلمين نقلوا بعضا من مقتنيات مكتبة برجاموم إلى مدينة بورصة Bursa في آسيا الصغرى، وبقيت هناك حتى عثر عليها تيمور لنك Tamerlane في عام ١٤٠٢م حيث تم نقلها إلى مدينة سمرقند في وسط آسيا. وظلت في هذه المدينة حتى وقت متأخر من القرن السابع عشر الميلادي، ولم يعثر لها على أثر بعد ذلك.[٦٨] ومن ناحية أخرى يشير بارسونز إلى أن مكتبة برجاموم كانت إلى سنة ٤١ق.م. لا تزال باقية وكانت مجموعاتها كبيرة تصل إلى ٢٠٠ ألف لفافة[٦٩] فإذا صح هذا الرأي فإنه يترتب عليه أمران: الأول أن هذا يتناقض مع أقوال كثير من المؤرخين حول الرواية التي أشير إليها سابقاً والمتعلقة بهدية الكتب التي أهداها ماركوس أنطونيوس إلى كليوباترا لوضعها في مكتبة الإسكندرية؛ والثاني أن الهدية المشار إليها قد تمت بالفعل وأعيدت الكتب مرة أخرى كما أشار إليه جونسون وهاريس.[٧٠]

١١ـ٤ـ٢. الخاتمة والاقتراحات

١ـ١١ـ٤ـ٢. الخاتمة

كان أحد أهداف هذه الدراسة ـ كما أشير في البداية ـ المساهمة في إيجاد أدب عربي مكتوب بتناول أهم مكتبة وجدت في العالم الهيلينستي بعد مكتبة الاسكندرية.

ولا يدعي الباحث أن الدراسة قد حققت جميع ما كان يصبو إليه. وكل ما يستطيع تأكيده أنه بذل وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً حتى خرجت إلى النور. ويعتقد الباحث أنه بنشر هذه الدراسة قد لفت نظر الباحثين إلى هذا الموضوع الذي يعده حيوياً وتوصل لنتائج من أهمها:

أظهرت الدراسة عدم وجود أدب مكتوب باللغة العربية حول مكتبة برجاموم مما يتطلب القيام بدراسات في المستقبل.

- أهمية مكـانـة مملكة برجاموم التي نشأت في أحضانها هذه المكتبة المعروفة وذلك بسبب الثـروات الـطبيعية المتعـددة التي تمتلكهـا إلى جانب الثـروتين الزراعية والحيوانية الأمر الذي أدى إلى قيام العديد من الصناعات.
- أوضحت الدراسة أيضاً درجة التحضر والرقي الذي بلغته هذه المملكة ولاسيما في مجال رعاية أوائل حكام الأسرة الأتالية للعمارة والفنون والآداب.
- بينت أيضا أهمية الرق كوسيط مهم للكتابة من خلال مقارنته مع البردي الذي كان الوسيط الرئيس قبل تطوير الرق.
- تمكنت الدراسة من تسليط الأضواء على مكتبة برجاموم من خلال ما يلي:
- الأهمية الخاصة للمكتبة انعكست بداية وجودها في أكروبولس المدينة، كما تمثلت في الرعاية الكبيرة التي أولاها إياها أوائل ملوك الأسرة الأتالية.
- تأسيس المكتبة، ومنْ قام به ؟
- طرق التزويد بالكتب والأساليب المختلفة التي استخدمت لتحقيق ذلك.
- عدد المقتنيات، وهل هي من البردي أم من الرقوق؟
- تنظيم المقتنيات، فهرسة وتصنيف موادها.
- العلاقة مع مكتبة الإسكندرية وتأثير الأولى على الثانية.
- علاقة مكتبة برجاموم مع المكتبات الرومانية.
- وأخيراً، نهاية المكتبة على ضوء ما توفر لدى الباحث من معلومات.
- ثم ذيلت الدراسة بعدد من الاقتراحات المحددة والتي من شأن الأخذ بها المساهمة في إيجاد أدب عربي مكتوب حول هذا الموضوع البكر.

٢ ـ ٤ ـ ١١ ـ ٢. الاقتراحـــات

حاول الباحث أن يتقصى أطراف هذا البحث. ولا يدعي أنه أحاط بكل أدبياته، ولكنـه ـ حسب علمـه ـ اطلع على جل ماكتب حولـه باللغة الإنجليزية ولهـذا فإنه يوصـي بمـا يلـي:

١ ــ تتبع ماكتب حول هذا الموضوع في المصادر الكلاسيكية من يونانية ورومانية.

٢ ــ تقصيّ الموضوع في اللغات الأخرى، وخاصة في اللغة الألمانية التي اطلع الباحث على كثير من ملخصات البحوث التي كتبت بها والتي يعتقد أنها ثرية ومفيدة في مجال هذه الدراسة. وتكمن أهميتها على نحو خاص في التقارير العلمية التي أعدتها البعثات الاستكشافية الألمانية عن نشاطها في موقع مدينة برجاموم بين سنتي ١٨٧٨ ـ ١٨٨٦م والتي توصلت إلى الكثير من المكتشفات الأثرية التي لا تزال محفوظة في متحف برلين.

٣ ــ اطلع الباحث على ملخصات باللغة الإنجليزية عن بعض الأبحاث العلمية التي نشرت حول الموضوع باللغة الفرنسية والتي يعتقد أن الرجوع إليها في لغتها الأصيلة سيسهم في إثراء هذا الموضوع.

وهكذا يعتقد الباحث أن أية جهود تبذل لرصد أدبيات الموضوع في هاتين اللغتين ـ وربما غيرهما ـ لابد أنها ستثري أدبياته باللغة العربية.

٤ ــ يوصي الباحث بإعداد دراسات خاصة تركز على بعض الجوانب المهمة التي تناولتها هذه الدراسة بشيء من الإيجاز وأهمها:

- عملية إيقاف تصدير البردي إلى مملكة برجاموم.
- برجاموم ودورها في صناعة الرّق.
- التنافس بين مكتبتي الإسكندرية وبرجاموم.
- الرواية المثيرة التي أشار إليها بلوتارك والتي زعمت أن ماركوس أنطونيوس استخرج مئتي ألف لفافة من مكتبة برجاموم وأهداها إلى كليوباترا لتضعها في مكتب الإسكندرية القديمة.

قائمة المراجع

(١) The New Encyclopedia Britannica (Chicago: Encyclopedia Britannica Inc., 1989), vol.9, p.288.

(٢) The Concise Oxford Dictionary (Oxford: The Claredon Press, 1982), p. 464.

(٣) Harry Thurston Peck (ed). Harpere's Dictionary of Classical Literature and Antiquities, and Antiquities, (New York: Cooper Square Publishers Inc., p. 1200.

(٤) John Willis Clark. The Care of Books, (Cambridge: Cambridge University Press, 1909), p.9.

(٥) Encyclopedia Britannica. (Chicago: William Benton, Publisher, 1967), Vol. 17, pp. 605-606.

(٦) Edward Alexander Parsons. The Alexandrian Library: Glory of Hellenic World. Antiquities and Destruction, (Amsterdam: The Elsevier Press, 1952), p.23.

(٧) Parsons, p.28.

(٨) Encyclopedia of Library and Information Science (New York: Marcell Dekker, Inc., 1968), Vol. 1, p. 401.

(٩) Elmer D. Johnson and Michael H. Harris. History of Libraries in Western World, 3rd ed., (Metuchen: N.J. The Scarecrow Press. 1967), p.52

(١٠) Sidney L. Jackson. Libraries and Librarianship in the West: A Brief History, (New York: McGrgaw Hill Book Company, 1967), p.18.

(١١) Johnson and Harris. P.52.

(١٢) Clark, p. 13.

(١٣) Clark, p. 10.

(١٤) Johnson, and Harris, p.51

(١٥) Jackson, p.17.

(١٦) Ernest A. Savage. The Story of Libraries and Book Collecting (New York: Burt Franklin, 1969), p. 12.

(١٧) Parsons, p.24.

(١٨) سفند دال، «تاريخ الكتاب من أقدمالعصور إلى الوقت الحاضر» ترجمة محمد صلاح الدين حلمي (القاهرة: المؤسسة القومية للنشر والتوزيع، ١٩٥٨م)، ص ١٩.

(١٩) Clark, p. 8.

(٢٠) James G. Olle, Library History, (London: Clive Bingley, 1971), p.21.

أنظر أيضـــا:

- Raymond Irwin, The Origins of the English Library (Westpart, Connecticut: Greenwood Press, Publishers, 1981), p. 88.

(٢١) Savage, p.15.

(٢٢) Johnson and Harris, p.52.

(٢٣) سعد بن عبد الله الضبيعان «مكتبة الإسكندرية القديمة: لمحة تاريخية»، العصور، مج ٤، ج١، يناير ١٩٨٩م (جمادي الأولى ١٤٠٩هـ)، ص ١٧.

(٢٤) فؤاد صروف «مكتبـة الإسكـنـدرية ومـدرستها وطرف من آثار علمائها في عهد البطالسة»، المقتطف، مجلد ٨٦، جزء ١، يناير ١٩٣٥م، ص ١٢.

(٢٥) النطق اليوناني أو اللاتيني لاسم المدينة (Scepsis) بالكاف وليس بكسر السين أو بإضافة يا كما هو النطق الإنجليزي. Parsons, P.29.

(٢٦) Johnson and Harris, p.52.

(٢٧) Jackson, p.18.

(٢٨) Parsons, p.22.

(٢٩) تختلف لفائف البردي حجماً وطولاً. ولعل كمية المعلومات المسجلة على اللفافة الوحدة Rool تقارب ما يشتمل عليه كتيب أو كراس واحد وتعادل بين ٦ـ٨ صفحات من الحجم الكبير من الكتب المعاصرة. وقد عرفت منظمة اليونسكو الكتاب بأنه «مطبوع غير دوري لا تقل صفحاته عن ٤٩ عدا صفحتي الغـلاف. أمـا الكتيب أو الكـراس «فهـو مطبوع غير دوري تتراوح صفحاته بين ٥ـ٤٨ عدا صفحتي الغلاف.».

(٣٠) Parsons, p. 29.

(٣١) محمد أحمد حسين، «مكتبة الإسكندرية في العالم القديم» ط ١، (القاهرة: مطبعة الاعتماد ١٩٤٣م) ص ٧٢.

أنظر أيضـاً:

.Encyclopedia Americana International (New York: American Corporation, 1955), Vol. 1, p.544.

(٣٢) Johnson and Harris, p.51.

(٣٣) Johnson and Harris, p.51.

(٣٤) Irwin, p. 30.

(٣٥) Savage, p. 15.

أنظر أيضـــا :

Johnson and Harris, p.59

Irwin, p. 88.

(٣٦) Parsons, p. 18.

(٣٧) Parsons, p. 22.

(٣٨) Parsons, p. 29.

(٣٩) Parsons, p. 23.

(٤٠) Johnson, and Harris, p. 51.

(٤١) Savage, p.15.

(٤٢) Parsons, p. 24.

(٤٣) Parsons, p. 24.

(٤٤) يعني الرق أو البرشمان ومقابله في الانجليزية Parchment ؛ وفي الفرنسية Parchemin ، وفي الألمانية Pergament ، وفي الايطالية Pergamena ؛ وفي اللاتينية Pergament أو Pergamena Charta ، أما الأصل الذي اشتقت منه هذه الألفاظ جميعها فهو اللفظ اليوناني Pergamene واللاتيني Pergamena أو Charta Pergamena وقد أخذت تلك التسميات من اسم مملكة برجاموم ، وتكتب Pergamum أو .Pergamon أنظر: David Diringer. The Book Before: Ancient. Medieval and Oriental York: Dover Publication Inc., 1953).P. 170.(New

(٤٥) Diringer, pp. 170-172.

(٤٦) دال، ص ٢٠ .

(٤٧) هارولد إدريس بل، مصر من الإسكندرية حتى الفتح العربي: دراسة في انتشار الحضارة الهيليستية واضمحلالها، ترجمة عبد اللطيف أحمد علي، ط ٣، (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٣م) ص ٢١ .

وأنظر أيضا:

الكسندر ستيبتشفيتش، تاريخ الكتاب (القسم الأول)، ترجمة محمد م. الأرناؤوط، سلسلة عالم المعرفة، ع (١٦٩)، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م) ص ٨٥.

(٤٨) Diringer, P.172.

(٤٩) Frederic G Kenyon, Books and Reders in Ancient Greece and Rome 2nd ed. (Ann Ar bar. Mith: The College of Librarianship Wales, University Microfilm Ltd., 1970) p.117.

(٥٠) الضبيعان، ص ٢٢.

(٥١) Alfred J. Butler, The Arab Conquest of Egypt and the Last Thirty Years of Roman Domin-ion, P.M. Fraster (ed.) 2nd ed. (Oxford): The Claredon Press, 1978) pp. 404-405.

(٥٢) ليس هناك وسيط كتابة لا يتأثر بعوامل المناخ الشديد كالحرارة، والبرودة، الرطوبة، والجفاف، وغيرها، لكن الأمور نسبية، والمقارنة هنا بين البردي والرق إذ من المعروف أن الرطوبة الشديدة تؤدي إلى تعفن الجلد، والحرارة الشديدة والجفاف يؤديان إلى تكسره.

(٥٣) بل، ص ٢١.

(٥٤) دال، ص ٢١.

(٥٥) Jackson, P. 18.

وأنظر أيضـــا:

Parsons, 29.

(٥٦) Parsons, p. 25.

أنظر أيضـــا: Jackson, and Harris, p.52.

Diringer, p. 171.

(٥٧) Games G. Olle, Library History (London: Clive Bingley, 1971), 21.

(٥٨) محمد أحمد حسين، مكتبة الإسكندرية في العالم القديم، ط، (القاهرة: الاعتماد، ١٩٤٣م) ص ٧ أنظر أيضا:

- الضبيعان، ص ٢١.

(٥٩) Clark, p. 12.

(٦٠) Savage, p. 15.

أنظر أيضـــا :

- Encyclopedia of Library and Info. Sci., Vol. 1,p. 400. - Jackson, p.18.

(٦١) Parsons, p. 24.

(٦٢) Johnson and Harris, p. 51.

(٦٣) Parsons. p. 29.

(٦٤) Johnson and Harris, p. 52.

(٦٥) Parsons, p. 28.

(٦٦) Clark, p. 8.

(٦٧) Johnson and Harris, p. 52.

(٦٨) Johnson and Harris, p. 52.

(٦٩) Parsons, p. 29.

(٧٠) Johnson and Harris, p. 51.

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب أهم مكتبتين عرفتا في العالم القديم، وهما مكتبتا الإسكندرية القديمة، ومكتبة برجاموم. وتنتمي المكتبتان إلى فترة تاريخية واحدة، هي الفترة الهيلينستية، وهي الفترة أنتجت حضارة عرفت بهذا المسمى. وتعد هاتان المكتبتان من صروح تلك الحضارة. وقد بني هذا الكتاب على بحثين محكمين نشرا في دوريتين علميتين شهريتين. فظهر البحث المتعلق بمكتبة الإسكندرية القديمة في مجلة «العصور» وهي مجلة تصدرها دار المريخ بالرياض. وتعنى بالبحوث التاريخية والآثارية والحضارية. وقد ظهر البحث في المجلد رقم ٤، ج١ لسنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م. ونشر البحث الخاص بمكتبة برجاموم في مجلة جامعة الملك سعود (الآداب) المجلة الرسمية لكلية الآداب بالجامعة في المجلد رقم (١٠)، عدد ٢ لسنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. وبناءً على رغبة كثير من المهتمين والمتخصصين، رأى المؤلف جمع البحثين بين دفتي كتاب وذلك لارتباط موضوعيهما، وللجهود الكبيرة التي بذلت في إعدادهما، ومن أجل التسهيل على القارىء العادي والمتخصص. ويرجو الباحث أن يكون بعمله هذا قد قدم شيئاً فيه المتعة والفائدة.

ردمك :٨-٤٧٦-٢٤-٩٩٦٠

